

الشفيع الرضي

آية الله العظمى
الشيخ
محمد رضا كاشف الغطاء
قدس سره

(١٣٦٦ هـ - ١٣١٠ هـ)

١٩٩٩ هـ

الذخائر

١٤٢٠ هـ

السُّرِّيَّةُ الرُّضِيَّةُ

آيَةُ اللَّهِ الْعُظْمَى
الْشَّيْخِ
مُحَمَّدُ رِضَا كَاشِفُ الْغِطَاءِ
وَقَدْسُ سِرِّهِ

(١٣٦٦هـ - ١٣١٠هـ)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ترجمة المؤلف

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيه محمد بن عبد الله
وعلى آله ومن والاه.

وبعد:

هذه نبذة موجزة من حياة العلامة الفقيه مؤلف هذا الكتاب
الموسوم بـ "ترجمة الشريف الرضي".

نسبه وولادته

هو العلامة الكبير والفقيه المحقق والكاتب النحرير الجامع لفضيلتي
النظم والشعر أبو علي الشيخ محمد رضا نجل الحجة الفقيه الهادي بن
الشيخ عباس بن الشيخ علي بن الشيخ الأكبر الشيخ جعفر صاحب
كشف الغطاء (قدس أسرارهم).

ولد في النجف الأشرف ليلة الأحد التاسع من شهر شعبان سنة
(١٣١٠ هجرية) وترعرع في أكناف بيتهم العامر الذي كان يعج بأعلام
الفضل، وتعبق أشداؤه بنفحات التقوى.

أساتذته

كان أول من أخذ عنه من أساتذته أباه الشيخ هادي حيث أخذ
المقدمات، ثم اختلف إلى حلقات المشاهير من أعلام عصره فقرأ

(٢)ترجمة المؤلف

”الكفاية“ على السيد أبو الحسن الموسوي الأصفهاني و”تجدد العباد“ على شيخ الشريعة وعلى الشيخ علي القوجاني، كما حضر في الأصول على الفقيه المجدد الشيخ النائيني وكتب تقاريره وعلى الشيخ اغا ضياء الدين العراقي وكتب تقاريره، ودأب على هذه الحال من مواصلة الحضور إلى مجالس أبحاث أولئك العلام حتى بلغ درجة الاجتهاد. وكان مع ما بلغ إليه من المقام الرفيع أديبا بارعا لا يشق له غبار في عالمي المنثور والمنظوم، كما أن من فحول المحققين في القضايا التاريخية والنوابع المحلقة في النوادي الأدبية التي كان تبارى فيها شيوخ العلم والأدب في ذلك الوقت، وتشهد لما قلناه آثاره المتنوعة وكتبه المصنفة في هذه الفنون، وقد كان طيب الله ثراه حجة في اللغة والنحو والمنطق وسائر علوم الآلة يرجعوا إليه فيما اختلف فيه منها.

مجلس درسه وتلامنته

كان رحمه الله شديد الحرص على إفادة أهل العلم وتنمية ملكات الاستنباط فيهم، ولم يكن ليفرط في الوقت بل كان يسير فيه على منهج دقيق ومراحل منتظم، وكان لتدريسه مجلسان عامران أولها عند الصباح والأخر بعد العشاءين كما أشار هو إلى ذلك في دفتر يومياته المخطوط والمحفوظ في مكتبة كاشف الغطاء، وكما شهد بذلك معاصروه من أهل الفضل. قال صاحب كتاب ”ماضي النجف وحاضرها“ (٣ / ١٩١) «تخرج الكثير من الأفاضل من مدرسته وكانت حلقات درسه تحتوي على كثير من مهرة الفن، وكانت تلاميذه في علم النحو والمنطق والمعاني والبيان والأصول والفقه والهندسة لا يفضلون

ترجمة الشرف الرضي (٣)
أحدأ عليه، وله آراء مبتكرة وآراء مستحدثة ضمنها في العلوم المذكورة
وكان محل تدرسه وبجته هو مقبرة جده العباس».

وقال الأستاذ الخاقاني في "شعراء الغري" (٨ / ٤١٩): «أما
علمه فقد ظهر في آثاره ظهوراً قوياً وفي حلقاته التي أختلف عليها كثير
من فضلاء العصر فكان يمتاز فيها بحسن العرض وقوة الأداء». ومن
تلامذته ابنه الأكبر الفقيه الحجة الشيخ علي (تدفن).

آثاره العلمية

ترك شيخنا المترجم (رحمته) آثار مهمة ومصنفات جليلة في جملة
من العلوم التي مهر فيها، وقد طبع بعضها وما زال القسم الآخر ينتظر
الطبع وإليك أسماءها:

- ١- "حاشية على كفاية الأصول". (مخطوطة).
- ٢- رسالة في الخط العربي. (مخطوطة).
- ٣- خمس مقالات في الهندسة تعرض فيها لأغلب الأشكال التي
ذكرها أقليدس في كتابه وقد برهن عليها بوجه آخر لم يذكرها أقليدس
ولا العلامة الطوسي. (مخطوطة).
- ٤- رسالة في اللغة بعنوان "الفرق بين الضاد والطاء". (مخطوطة).
- ٥- الفصول الرائقة في الأمثال العامية الدارجة في العراق. (مخطوطة).
- ٦- كتاب في الرد على النصارى حاكم فيه بين الإسلام والنصرانية
الموسوم "الحق المبين فيمن يجب اتباعه من المرسلين" (مطبوع).
- ٧- كتاب "الرق في الإسلام"، عالج فيه المواضيع المشككة في الرق.
(مخطوطة).

(٤).....ترجمة المؤلف

٨- ديوان شعره. (مخطوطة).

٩- ترجمة الشريف الرضي. وهو مطبوع/النجف الأشرف/ الناشر شيخ العراقيين/دار النشر والتأليف. وقد ذكره صاحب الذريعة في موضعين الأول في المجلد السابع الصفحة(١١٩) بعنوان حياة الشريف الرضي والثاني في المجلد الرابع عشر الصفحة(١٨٨) بعنوان الشريف الرضي. وهما كتاب واحد.

١٠- تحقيق وتعليق على الجزء الخامس لكتاب حقائق التأويل للشريف الرضي/ الناشر جمعية منتدى النشر/دار المهاجر/بيروت.

١١- كتاب الغيب والشهادة. قال صاحب الذريعة (١٦/ ٨٤) «فيه مباحث الروح وعالم البرزخ والمعاد وأحوال القبر والبعث وغيرها»، طبع في النجف الأشرف في ١٣٤٦ هجرية.

وفاته

لبي نداء ربه بعد إصابته بمرض السكر وهو في مصحح بجنس بلبان سنة ١٣٦٦ هجرية، ونقل جثمانه الطاهر إلى النجف الشرف حيث دفن في مقبرة آل كاشف الغطاء بجوار جده وأبيه (طيب الله ثراهما).

عقبه

أعقب خمسة أولاد وهم:

- ١- الفقيه آية الله العظمى الشيخ علي المتوفي ١٩ رجب ١٤١١ هـ.
- ٢- الدكتور محمد. ٣- الأستاذ أحسن المتوفي في ١٤١٠ هـ. ٤- الحقوقي
- الأستاذ جعفر. ٥- حسن المتوفي (١٣٤٨ هـ) وعمره ثمان سنين.

مصادر ترجمته

- ١- طبقات أعلام الشيعة/١/٧٧٥.
- ٢- ماضي النجف وحاضرها/٣/١٩١.
- ٣- شعراء الغري/٨/٤١٨.
- ٤- الغدير/٤/١٨٢.
- ٥- هكذا عرفتهم/١/١٤٣.
- ٦- الذريعة في مواضع متفرقة.
- ٧- كتب ولده سماحة آية الله الشيخ علي (مُنْتَقَى) ترجمة حافلة لوالده الرضا جاءت مع ما قيل في تأيينه من نظم ونثر في ستة مجلدات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

للهاشميين طموح نحو العرش الإسلامي وهم وراثه الشرعيون وهذه النزعة السياسية تتحلب من أصلابهم وتنحدر في دمائهم وتداث في غرائزهم، ولها كمون وبروز يلاحظ بمظاهر مختلفة ويتحمل أعباءها الدم تارة، والقلم أخرى.

وإذا استعرضنا التاريخ نجد أن أكثر الوقائع التي يقوم بها الهاشميون في وجه الحكم لا تنتهي إلا بالفشل، وأهم أسباب هذا الفشل لمن تدبر هو أن ذلك النمط من تلك الوقائع كان ينشأ في ظروف خاصة وأحوال استثنائية وفترات من الحكم مؤقتة، ما تفتأ أن يستعاد لها النشاط ويتظافر على إحباطها العرش والزمن والقوة الدموية ومستقر المرجعية الدينية ما يتماشى منه مع السلطة والآخر الذي نهج خط الانعزال السياسي وإليك كلمة في هذا الشأن.

إن مسألة الخلافة هي القضية الوحيدة التي امتهنت بها الوحدة الإسلامية وارهقتها في الصدر الأول وفي القرون المتوسطة، وعصفت بالتضامن الإسلامي وشقت عصاه، وقد حسبت لها حسابها الأئمة الطاهرون من ولد علي (عليه السلام) وتمسكوا حولها بمبدأ السر الألهي الذي استودعوه ففسلوا أيديهم في سبيلها من دم الخلاف وردوا في شأنها سيوف الفتن الى أغمادها. فتنازل الحسن (عليه السلام) عن السلطة الزمنية لمعاوية، وجرى على ذلك من بعده من الأئمة الاثنى عشر (عليهم السلام)

حرصاً منهم على سلامة كيان الدولة الإسلامية. وكان أول تصريح ملوكي لفصل السلطة الزمنية عن السلطة الدينية في التاريخ الإسلامي هو ذلك الخطاب الذي أفصح به معاوية في نقض الشروط التي اشترطها الحسن (عليه السلام) عليه ولم يكن قتال الحسين (عليه السلام) في كربلاء من قبيل المطالبة بالعرش، إنما أراد به الدفاع والخلاص من عادية تلك السلطة وأن يظهر للملأ بتركة للبيعة أن تلك السلطة ليست هي من نوع الخلافة الدينية المفترضة طاعتها من الله. وهكذا اتبع الأئمة خطة الانعزال السياسي وانصرفوا إلى تأدية الرسالة التي كلفهم الله بها. ولكنهم في ذات الوقت يرون أن حقهم مهتضم إلا أن الأتباع والأعمام والمتحمسين من الأبناء لا يروقه ذلك، فقد سمع الحسن (عليه السلام) من بعض الخلفاء من شيعة موحشة قذفتها من فيه فورة الدم وسورة الحماس والغضب.

ومن ذلك الحين رضح المبدأ العلوي للقوة وانصاع لمقدراتها وتمسك به كل من مسه لهب الحكم واستمال إليه موقفه المهتضم، من الشعوب التي كانت مراتع البغي والعدوان وفتح لها أبواب التفكير في عقيدته ودفع بها إلى اعتناقها.

كانت الدولة الأموية تحاشي العرب وتهاب الاعتداء عليهم في أقطارهم والعرب أنفسهم لا يرون لها ذلك الشأن الذي يمكنها التلاعب بمقدراتهم، وبلاد فارس دار مغنم ودهاقينها شاة حلوب وملك الري هو الذي ينهمر كالسيل بأمواله على خزائن الدولة. أضف

إلى ذلك أنها سهلة التناول وفي الجوار وبلاد الموالي رقاب المزود، فكانت الولاة تتلاعب فيها ما شئت لهم شهواتهم وأمانيتهم، فاضجرها الحيف والجور وتغلغل في قرار أعماق نفوسها المقت والبغض للدولة، وأصبحوا يرقبون الفرج في كل حين واستلزم ذلك طبعاً الميل إلى المعارضة والمشايعه لمن يرغب في هدم هيكل سلطانتها.

والبيت الهاشمي هو ذلك البيت الذي ينتظر منه الفرج والعنصر المعارض، وقد أوجب ذلك أن تميل إليه دخائلهم وتعطف له طباعهم، وقد زادهم عطفاً عليه الكوارث والنكبات التي كات تنزلها الدولة به والمظلومية والامتهان من دواعي العطف والحنان.

ومن هذه الطريق سرت إليهم العقيدة الشيعية فكانوا شيعة بطبيعة الحال، غير أن الجمهور والعامة الدهماء منهم شيعة على الإجمال للبيت الهاشمي بجملته بحكم العاطفة والوجدان من دون تبصر وروية ولا تمسك بالعقيدة عن علم ودلالة ومن دون معرفة بمستمر الإمامة ومهبطها، نعم كان فيهم أعلام يعرفون مواضعه ومراجعته وهذا ما دفع بالخرسانيين لنصرة العباسيين على حساب أنهم فرع من تلك الدوحة الهاشمية وسلالة من تلك الأسرة صاحبة الحق والمضطهدة من قبل الدولة الأموية، فخرطهم في ولايته بسلك واحد وظن أن القوائم بالأمر هو معقد الزعامة والإمامة ودعوته دعوتهم وولاؤه ولاؤهم، وجهل كل الجهل ما كان بين العلويين والعباسيين من اختلاف في الرأي والمبدأ. ولا تنسى أن بعض المتبصرين منهم كان على اتصال مع إمامه

صلة دينية مجردة ليس وراءها سوى أخذ معالم الدين وكان على علم من مخالفة الأئمة العلويين لأبناء عمهم العباسيين في المبدأ والخطة والغاية. وأما ما سطره بعض المؤرخين من أن الدعوة العباسية كانت تعتصم وتستمد من الصلات السرية بالأئمة العلويين، فتلك فرية تاريخية واسطورة خيالية والسيرة العباسية معهم تدلنا على أن هناك عهداً عباسياً ملوكياً يتوارثه الأبناء عن الآباء فما زال العباسيون يزجونهم في سجونهم ويأخذون عليهم السبل ويقلقونهم بالمنافي. ولا يجهل أحد ما فعله المنصور بجعفر بن محمد (عليه السلام) ولا ما لقيه ابنه موسى بن جعفر (عليه السلام) ولا ما انتهى إليه أمر المأمون مع الرضا (عليه السلام) لقيام العباسيين عليه وإجماعهم على أن ما صدر منه غلطة سياسية كان يجب تلافياها.

إلا أن الأئمة العلويين دأبوا على اتباع الخطة المثلى والعزيمة الآلية التي صمموا عليها، فقد أعرضوا عن التاج والعرش الإسلامي، ولقد كان انزعاجهم السياسي وموقفهم الديني مباركاً على العقيدة الشيعية ومن أقوى أسباب حياتها وبقائها ونموها وزكاتها واستنحاليها وقد نخطت القرون الطويلة ولم تصدعها الكوارث والحوادث، ولم يهدأ بطش الفراعنة والجبارين ولم تززعها عواصف السياسة. وقد تهيأ لهم (عليهم السلام) وبالأخص منهم علي بن الحسين (عليه السلام) من العطف العام والأنصار والأعوان والأموال الطائلة ونجدة الأبطال ومناصرة الرجال ما لم يتهيأ لغيرهم. وعلي بن الحسين وهو على حداثة سنه ومبدأ أمره

لم يفره ذلك ولا صرفته التوسلات الملحة عن نهجه القويم فمضى على بصيرة من أمره بعزم كالحديد في تقوى وزهادة وإرشاد وعبادة وانقطاع وانعزال، وهذا هو الذي قصر حركات العلويين على الحسرات والعبرات وشل التوسلات الثوروية الدموية التي كان يدبرها بالخفاء بعض أبنائهم المتحمسين، وأصبحت تلك النزعة السياسية والدخيلة العلوية الكامنة في نفوس أبنائه تتفلسفت وتبدو تارة بمظهر جدلي علمي على السنة علمائهم، وأخرى بمظهر شعري خيالي في شعر فصحاءهم وأدبائهم، وتلتهب بها ثلاثة قرائح الكتاب فتفجر أقلامهم كأفواه البراكين وتصقل عبقرتهم الأدلة والحجج فتلبسها أبراداً موشاة من بليغ الأساليب البيانية، وإذا استقرأنا حياة الشريف الرضي وتبعنا خطواته وسبرنا شعره ومؤلفاته نجد نفسه متشعبة بذلك الشعور. ولقد ملئ من ذلك الإحساس وهو صورة حقيقية لنفسيته، وبه نقيس وجدانياته ومنه نعرف نزعاته. وسيرى القارئ فيما يأتي ذلك فان طبعه مطبوع على ذلك الغرار وذهنيته علوية على ما وصفناه.

الشريف الرضي^(١)

ولادته ونشأته ودراسته

ولد ببغداد مدينة العلم والأدب، وعاصمة العراق، سنة ٣٥٩هـ ونشأ في حجر والده الطاهر. ودرس العلم في طفولته فبرع في الفقه وفاق أقرانه، في العلم والأدب، وتلمذ على يد أساتذة من أهل العلم والفضل كما ينبؤنا كتاب "المجازات النبوية"^(٢) وقال الشعر، وعمره لا يزيد على العشر حتى فاق شعراء عصره على صغر سنه. فلما بلغ سنه (٢٩) خلف أباه في النقابة على الطالبين، ثم ضمت إليه مع النقابة سائر الأعمال التي كان يليها أبوه. وبقي فيها حيناً من الدهر، حتى تغير عليه القادر بالله، لانتهامه بالميل إلى الفاطميين فصرفه عنها، فعاش عيش القانع الشريف إلى آخر أيامه.

(١) أبو الحسن محمد: ابن أبي أحمد الطاهر، ذي المنقبتين الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن إبراهيم المجاب بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي بن الحسين بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليهم السلام.

(٢) روى ابن خلكان أن الشريف أحضر إلى السيرافي وهو طفل لم يبلغ عمره عشر سنين فلقنه النحو، وعلي بن نباته، وقاضي القضاة أبي الحسن بن عبد الجبار بن أحمد الشافعي المعتزلي وأبي بكر محمد بن موسى الخوارزمي وأبي عبد الله محمد بن عمران المرزباني وأبي الحسن علي بن عيسى الرهبي وأبي حفص عمر بن إبراهيم الكنتاني وأبي الحسن علي بن عيسى الرماني وعثمان (ابن جني) وأبي عبد الله محمد بن محمد بن النعمان (المفيد) المتوفي سنة ٤١٣هـ ببغداد.

صفاته وأخلاقه

كان أئبي النفس، عالي الهمة، سمت به عزيمته إلى معالي الأمور، فلم يجد من الأيام معيناً، وكان عفيفاً لم يقبل من أحد صلة ولا جائزة حتى بلغ من تشده في العفة أن رد ما كان جارياً على أبيه من صلوات الملوك والأمراء وأجهد بنو بويه أن يحملوه على قبول صلاتهم فما استطاعوا.

آثاره العلمية والأدبية

للشريف مؤلفات عدة ومصنفات جمة^(١) تدل على علمه وفضله وأدبه الفزير، وتضلعه في النحو واللغة، وأصول الدين، والفلسفة وغيرها من مختلف العلوم منها:

١- "تلخيص البيان عن مجازات القرآن".

٢- "المجازات النبوية".

٣- "معاني القرآن".

٤- "نهج البلاغة"^(٢).

٥- "حقائق التأويل في متشابه التنزيل".

٦- "خصائص الأئمة عليهم السلام".

٧- كتاب سيرة والده الطاهر^(٣).

(١) سيأتي بيان شرحها.

(٢) هذا الكتاب الفائز بعظيم الشهرة والاهتمام مشروح بشروح كثيرة وقد وقفنا حتى اليوم على ستة وستين شرحاً من هاتيك الشروح ما عدى الشروح الخاصة بمخطب مخصوصة وهي لا نقل عن تسعين شرحاً. ويروي بعض علماء التاريخ والأدب أن شروح "نهج البلاغة" قد بلغت نحو المائتين.

(٣) ألفه قبل وفاته بـ(٢١) سنة.

- ٨- كتاب رسائله: (ثلاثة مجلدات)^(١).
- ٩- كتاب ما دار بينه وبين أبي إسحاق الصابي من الرسائل.
- ١٠- كتاب "الزيادات" في شعر أبي تمام.
- ١١- "مختار شعر أبي إسحاق الصابي".
- ١٢- "أخبار قضاة بغداد".
- ١٣- "تعليق خلاف الفقهاء".
- ١٤- تعليقه على إيضاح أبي علي الفارسي^(٢).
- ١٥- كتاب الجيد من شعر ابن الحجاج وقد أسماه "الحسن من شعر الحسين".
- ١٦- (ديوان شعره).

شعره

نهج الرضي في شعره منهج الأقدمين من الشعراء في جزالة اللفظ، وفخامة المعنى تنزه فيه عن عبث الوليد ومجونه، وكان على مكاته في الشعر، راسخ القدم في الكتابة، بعيد الشأو في الترسل.

مفرسه

انحدر من أصلاب الشرف العلوي، ودرت عليه أخلاف المجد الهاشمي، وبرز في ظلال أسرة الزعامة ودرج من أحضان الإمامة فكان لهذا أثر بليغ في ترفعه وشممه ومطاولته ومحاولاته وعواطفه وميوله وتحدياته، وأوجب ذلك أن يرى لنفسه كفاية العرش ومنازعة

(١) وقد نشرت مجلة العرفان شيئاً منها.

(٢) ذكرت هذه الكتب في "حملة الطالب في أنساب آل أبي طالب"، وفي "رجال النجاشي" أيضاً.

(١٤)..... الشرف الرضي حفره

التاج فيقول للعاهل العباسي:

عن دوحة العطاء لا تنطرق

مهلاً لسير المؤمنين فبنا

لنا عطلل منها وأنت مطوق

إلا للخلافة ميزتك فتنى

إلى آخره.....

ما بيننا يوم الفخر تفلوت

ولا ينكر عليه القادر بالله دعواه ولا يستظهر عليه بالتفوق بطيب
المغرس وإصالة النجر وكرم المحتد، ولكنه يعتصم بالقوة ويرغمه على
النزول لأحكامها فيرد عليه بقوله: (على رغم أنف الشريف).

وكانت شاعرية الشريف وقوة خياله^(١) تطير به إلى القمم والشرفات
وتذكي في نفسه الأريحية والخيلاء وتقرب من أخصمه موطأ الدست
وترد بأفكاره ونزعاته إلى اتجاه معين، وتستعيد له ذكرى مجد السلف
الذي طأطأ له أكاسرة فارس وأفيال الروم ولم تستدرجه مصانعة
العباسيين. فقد كان يحرق لهم الأرم وينبزههم باللقب الوضيع، فان
الطائع كان يباليغ في إكرامه وإكرام أبيه ولكن الشريف يرى أن ذلك
حقه الصريح وان من الرعونة أن يبيعه ضميره بمغرم حسامه فيقول:

الاتني غرب الجسم الذي ترى وغارب هذا الأرعن المتصلمي

كلانا له المسبلى المبرد للعلى وإن كان في نيل العلى أملمي

وما بيننا يوم الجزاء تفلوت سوى أنه خاض الطريق أملمي

استهل الشريف في حجور المجد، وأورق عوده من دوحة ضربت
أعياصها في منابت الفخار واستفاد نوع الثقافة واستقام له اتجاهه
النفسي في محيط من السراة والنقباء والعلماء والأمرء.

(١) أو خيالية.

رهطه وأشيائه

شعر الشريف ميادين حروب وغمرات آجال وشعور ملتهب وآلام وآمال ونفس جائشة تلمظ للوثبة فمن أين تفجر هذا الشعور؟ وما الذي أوجب هذا اللهب؟ وما الشريف الرضي من أوله إلى آخره إلا إعصار فيه نار .. !! لا ريب إن المنافي والاغلال التي أرهق بها رهطه وآله الأنجاد الأولون، والأسناد التالون في سبيل منازعاتهم ومحاولاتهم، والسجون الكواظم والدماء السواجم التي نكلوا بها، هي التي أثارَت فيه ذلك الشعور وتعالیه من تلك المعالي وتمجده من مجد أولئك الاماجد، وهنا نقص عليك نفاً من أحاديثهم وعلى ضوئها تعرف ناحية من نواحي حياة الشريف. أما أبوه الحسين، فكان قوي المنة شديد العصبية، يتلاعب بالدولة ويتجرأ على مقدراتها، وكان نقيب النقباء اسندت إليه أمانة الحج والنظر في المظالم ولقب بذي المتعبتين ولم يلقب به أحد من الطالبيين، وله غلو في التمجيد بأبائه. وديوان الشريف مملوء بمدائح وتهانيه وشكر أياديه، وقد ورث منه هذه النزعة. ولما قبض عليه المطهر بن عبد الله، وزير عضد الدولة، وهو وابن عمر العلوي وابن معروف قاضي القضاة وحمله إلى فارس وسجنه في القلعة قال له: (كم تدل علينا بالعظام النخرة) وفي ذلك يقول الشريف:

وطاغ يُعبرُ البقي غرب لساقه	وليس له من جنب الدين ذاند
تعبر رباً الخير بالي عظامه	الانزهت تلك للعظم البوانذ
ولو كان بين الفاطميين رفرفت	عليه العوالي والظبي والسواخذ

ومدائح الرضي لأبيه كلها تستقطب حول الإشادة بمفاخر الأسرة ومآثر البسالة والاستتكاف عن مصائد الاطماع والشموخ، بفرر الأيادي وإن الظهير الصادر من ديوان الخلافة في إسداء إمارة الحج له الذي نقرأه في رسائل الصايي ومراثي المهيار له في قصيدته التي مطلعها:

كذا تنقضي الأيام حل على حال وتنقرض العداوات بلا على تلمي

ومنها يشير إلى (المرتضى والرضي):

فيا ليت لم نعلم وفونك عادة بشبليك من عطف عليه وأسبال

والمعري بقوله:

لودي فليت العاديات كسب مال المسيف وعنبر المستاف

الظاهر الأباء والأبناء والأثوا ب والأثراب والآلاف

لخير دليل على ذلك وإن مكانة ولديه (المرتضى والرضي) تحدد لنا كرامته الاجتماعية بما ذكرناه. وقد أثرت على الشريف قضية القلعة وسجن أبيه فيها وكانت تقلقه وتشتير منه الحفاظ وله حولها اندفاعات حماسية نقرأها في شعره الذي نظمه عند الإفراج عن أبيه واستقباله وفي تهانيه عند عودته إلى بغداد ومكاتباته له وكان يتكظم غيظه في مكاتباته اتقاء من مكر عضد الدولة وكيدته ثم تنطلق له حرية شاعريته شيئاً فشيئاً في الإفراج عنه ثم في استقباله وفي تهانيه ولقد كان يهاب عضد الدولة، حتى بعد أن إستخذلت جثته الهامدة في قبره فلا يفصح

ترجمة الشرف الرضي..... (١٧)

بنياً هلاك عضد الدولة لأبيه إلا على سبيل الرمز والإشارة فيقول له
سنة ٣٧٧ هـ:

أبلغنا عني الحسين الأكا ن ذا الطود بعد عهدك سلخا
والشهب الذي اصطليت لقصاه عكمت ضوءه الخطوب فبلخا
ومنها:

أعجلتها لمنون عنا ولكن خلفت في ديارنا الفركا

وأبو الشريف من اسرة بهاليل مساعير سرة مصاليت ومقامه
الكريم أهله للسفارة ما بين معز الدولة والأتراك، وما بين بهاء الدولة
وصمصام الدولة، ولتوسط الصلح ما بين معز الدولة وابن حمدان،
وإطفاء الفتن بين الجندين البغدادي والفارسي، والطائفتين الشيعة و
السنة، وأمثال هذه الأمور لا يعهد بها إلا لذي كرامة سامية بين
الجماهير، واحترام ذاتي واسع غير مستعار ويظهر لي إن الخلافة
العباسية، كانت تخشى إقامته في عاصمتها، فكانت تكلفه بأمثال تلك
السفارات وما يشبهها من وظائفها وقد قضى الشريف أربعة عقود من
عمره مع أبيه، توفي أبوه سنة ٤٠٠ هـ وتوفى الشريف، سنة ٤٠٦ هـ وهو
ابن ٤٦ سنة كان يتلابس فيها بأعماله ويستتبه في شؤونه أكثر من أخيه
المرتضى، وسنذكر لك أسباب ذلك ونوضح لك أن الشريف، كان
ينحو عدوة أبيه وخططه ومراميه السياسية وليس المرتضى من ذلك في
شيء.

ولم يكن عم الشريف، أبو عبد الله أحمد بن موسى بالختامل

الذكر الوضع الشأن فان الذي يظهر لنا من قصيدة الشريف، التي رثاه بها عند وفاته سنة ٣٨١ هـ والتي مطلعها:

خُصِّمَ حَلا عِنْدَ الزَّمَانِ لِمُصْنَمَتَا مُضَلِّبَةُ حِينَا وَعَدَا إِلَى الْغَمْدِ

ومن الشأن الذي توفى وهو خروجه إلى واسط لاستقبال بهاء الدولة، أنه من رجال الطالبين الذين أسهموا بالفخار والكرامة، فلا يستقبل الملوك إلا من يعرفه الملوك ويقدرون موقفه ومن الجائز أن يكون ممثلاً لأخيه أبي أحمد الذي كف بصره في آخر أيامه، وكفاه مجداً أن يترك ولديه المرتضى والرضي، ويخصه بذلك، وأما حال الشريف الناصر فان نسبه ينتهي إلى عمر الأشرف ابن زين العابدين (عليه السلام) وفي سلسلة هذا النسب ورجاله من دوح الملوك، والنايغ في العلم والأدب والشاعر المجيد كأي علي الشاعر، الذي أشخصه الرشيد من الحجاز، وحبسه في بغداد، وأقلت من حبسه واختفى فيها، ومحمد بن القاسم الصوفي، الزاهد الفقيه إمام (الزيدية) الذي ظهر أيام المعتصم في طالقان، وقبض عليه ابن طاهر وأنفذه إلى بغداد، فسجن فيها ثم فر فاخذ وقتل صبراً، والشريف أحمد الصوفي الفاضل المصنف، وأبي عبد الله الحسين والحسن الشاعر المحدث، وأبي محمد الحسن أو الحسين الناصر للحق الكبير الاطروش إمام الزيدية، صاحب الديلم وصاحب المقالة، وإليه تنسب الناصرية من الزيدية، ضرب ألف سوط فصم، وأبي علي الأديب الذي كان يذهب مذهب الإمامية ويهجو الزيدية، ويعاتب أباه بقصائد، وأبي محمد الحسن الناصر الصغير النقيب ببغداد، والذي صح عندنا من نسب أم الشريف فاطمة، إنها بنت الناصر الصغير أبي محمد الحسن أو الحسين ابن أبي الحسن أحمد ابن

ترجمة الشرف الرضي..... (١٩)

أبي محمد الحسين صاحب الديلم، ابن أبي الحسن العسكري ابن أبي محمد الحسن بن علي الأصغر المحدث ابن عمر الأشرف، والمتبع يجد اضطراباً كثيراً في كتب التراجم والرجال في نسبها وعلى ما ذكرنا من نسبها فخال الشريف، هو المكنى بأبي القاسم ناصر الملقب بريقا، على ما ذكر في عمدة الطالب، وظني أن تهمة الشريف بعقيدة الزيدية، نشأت من سببين :

الأول: من جهة أخواله الذين أغلبهم زيديون، وفيهم أئمة للزيدية وأصحاب مقالات فيها.

والثاني: ما شحن به شعره من الحماس والمطالبة بالثأر والدعوة إلى الخروج على الخلفاء وأرباب العروش في عصره كما يفعله أئمة الزيدية وشعراؤهم ورجالهم في أساليب خطبهم وشعرهم. وفي جده من أمه هذا يقول من قصيدة يهنته فيها:

لرقي المعالي التي أوفى أبوك بها فكم تناولها قوم بغير لب
إلى أن يقول:

كُنْ كيف شئتَ فإنَّ المجدَ محتملٌ عنك للمفخر في بنتٍ وفي عقب
ومنها:

يا ابنَ الزينِ إذا عدوا فضائلهم عدى الندى ضربهم في هامة النشيب

وقال جامع ديوانه، في ترجمة هذه القصيدة، وقال رحمه الله يمدح خاله أبا الحسين أحمد بن الحسين الناصر، وقال في ترجمة القصيدة، التي يرثي بها والدته، وقال يرثي والدته فاطمة بنت الناصر، وأبو

(٢٠)رمطه وأشياخه

الحسين هذا ليس بخاله إلا على ضرب من المجاز، ويخاطبه في القصيدة التي يرثي بها والدته:

أهلوك لفر الذين تلقجرت بهم ينابيع من النضام
من نصر للحق أو داع إلى سبل الهدى أو كاشف الغمام
نزلوا بعرة المنام من العلى وعلاوا على الأتجاج والأمطاء

ويتصل نسب الشريف من أبيه بالإمام موسى بن جعفر^(١) (عليه السلام) وهو في طبقة القائم المهدي (عجل الله فرجه) وفي آبائه والأعمام الذين يتصل في سلسلة نسبه بهم بالإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) الشرف كل الشرف والرتب الشامخة، ومن توثبوا على عروش الخلفاء وامتشقوا الحسام في وجه سلطانهم ولقد كان الطالبيون في تلك القرون والعهد القريب يتمثل لهم الحق الصريح في العرش الإسلامي ويشعرون بأنهم هم وراثه الشرعيون، وبدمائهم ربح المسلمون في صفقتهم وبسيوفهم تأسست الدولة الإسلامية، فما كانت تمر الفينة بعد الفينة، من الزمن إلا يقوم قائم منهم بالدعوة وما أسرع ما تلتف حوله الجماهير وتناصره بالأنفس والأنفس، ولهذا كانت النقابة من الضروريات في تشكيلات الدولة، ومن وظائفها المهمة كما سنذكره.

الشريف: بحاشيتي نسبه من جهة الأب والأم، يقبض على عضادتي الإمامة فهو ابن الإمامين علي بن الحسين وموسى بن جعفر عليهم السلام ومن الأعمام والخواشي يكرع بكؤوس الفخار ويتزمل مطارف الشرف والمعالي وقد أثر هذا النسب الواضح في خياله وشعره

ترجمة الشرف الرضي (٢١)

وتمشى في أدبه وأسبغ عليه حلة ضافية، فلا يستطيع أن يعمل قريحته في نظم قصائده مجردة عن تلك النعرة، وهو من هذه الجهة ظهرة علنة فاه لا يطبق الكتمان، وشعره أغلبه مطبوع بطابع ذلك الشعور الذي يساور قريحته ولا ينفك عنها ومصقول على غرارها، وهذا ما نجده بين دفتي ديوان شعره فهو مملوء إلى حواشيه بالتماجد والافتخار الذي يتجاوز حد المبالغة إلى أقصى أمد في الغلو، ولكثرة مزاوله قريحته ذلك برع في هذا الفن من الشعر واحتكر فيه سرير الأمانة.

ولما كان الشريف ممن فتنه المجد وصرعه الطموح إليه حسب أنه مما يفتتن به حتى الرشا الشارد والحبيب النافر فغازله ليفريه بما افتتن به وعرض له بأسمى ما يشعر به من لغات الفتوة والمجد في قصيدته:

لَوْ عَلِمْتَ أَيُّ فِتْنَى مَاجِدٍ ذَاتِ اللَّمَى وَالشُّنْبِ الْبُرْدِ

ومنها:

لَظَلَّتْ أُنْمُ تُسَى طَرْفَهُ تَلَفَّتْ الظُّنْبَى إِلَى الصَّبَدِ

وفي هذا البيت من رقيق المعنى ولطيف التشبيه ما لا يستكفه الشريف من فروسية الصائد وروعة الحبيب وفزعه واعتصامه بالنور وملاحظة المحاول ما تعدى الحد.

ومنها:

مَا لَنَا لِلطَّيَامِ إِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ وَلَدِي مَا كَانَ مِنْ وَالِدِي

ثم تستدرجه ذكرى عليائه ويذهل عن موضعه ويطلق على لسانه ما أكنه في قرارة نفسه من عزائمه وأمانيه فيقول:

وَلَا مَشْتَبِي لِلخَيْلِ إِنْ لَمْ لَطَا سَرِيرِ هَذَا الْأَغْلَبِ الْمَاجِدِ

ويقول:

ما حذرُ من ضربت به أعرافه حتى بلغن إلى النبي محمد
إن لا يمد إلى المكرم باعة وينال منقطع الغلى والمؤيد

ويقول:

أخذنا عليهم بالنبي وفاطم طلاع المساعي من مقام ومنجدي
وظلنا بسنطي أحمد ووصية رقب الوري من متهمين ومنجدي
وحزنا عتيقا وهو غيبة فخركم بمولد بنت القاسم بن محمد

ويقول مشيراً إلى ما أرقه من حق مهتضم:

ردوا ثراث محمد ردوا ليس القضيبة لكم ولا الفزد
هل عرفت فيكم كفاطمة أم هل لكم كمحمد جد
شرفوا بنا ولجدنا خلقوا وهم صنتعنا إذا عبدوا^(١)

ويقول:

قومي اتوف بني معد والذري من واضح فيهم ومن وضاح
ضربت بعرفي بوحه نبوية في منصب وارى الزناد صراح
ويقول وهي أحسن ترجمة لأبيه:

ورثنا رسول الله علوي مجده ومعظم ما ضم الصفا والمعرف
يريدون أن نلقى إليهم أكلنا ومن نمنا أيديهم الدهر تتطف
وهذا لبي الأئني الذي تعرفونه مقدم المجد أول ومخلف
مؤلف ما بين الملوك إذا هفوا واشفوا على حز الرقاب واشرفوا

له وقلت بالحجيج شهودها إلى عقب الدنيا منى والمخيف
ويقول:

لنا ابن الأولى لما دعوا يوم معرك إذا نزلوا بالمحل استتبوا الربى
أمدوا تائب القنا بالمعاصم وكتوا نتاجا للبطون العظام
وما منهم إلا امرؤ شب ناشنا على نمطي بيضاء من آل هاشم
فتى لم توركه الاماء ولم تكن أعزيبه مخولة بالأعجم
ويقول وقد أغرق في الغلو والمبالغة بالادلال والأقتخار:

يقن المجتدي بما على الجود توصينا
ملكنا مقطع للرزق فقرنا واغنونا

وله من الفخر العصامي ما لا يقل عن فخره العظامي فمن ذلك
قوله:

أحب خليلي الصفيين صلام وأطيب دري الخباء المطنّب
لثمي غبار الخيل في كل غارة وثويي العوالي والحديد المنرب
أنا السيف إلا اتني في معاشر أرى كل سيف فهم لا يجرب

ويقول في القصيدة التي يمدح بها أباه:

مالي لخوف بالردى فلخافه هبهات لي في الخلق بعد عجاب
بنا تكلة المقلب إن لم لجنها شعواء يحضرها الطيب الخلاب

وقوله أنا أكلة المقلب من لطيف المجازات:

ومجاهل للفلوات لطيب منزل عندي ووفى الواعدين نجائب

ومما يدلنا على أن فكرة التوثب والنهوض كانت تساوره منذ الصغر،

وقوله وهو ابن عشر سنين:

المجد يطم أن المجد من لربي ولو تملكت في غي وفي لعب
وقال:

نهضت وقد فعن بي الليالي فلا خيل أعن ولا ركاب
سلطبتها بحد الميف فعلا إذ لم يفن قول أو خطاب
وأخذها وإن رغمت أنوف مغلبة وإن زلت رقاب
وقال:

أراح بني عامر دلهم وعرضنا عزنا للتعاب
وفزنا عليهم طريق البقاء ولحلوا لنا عن طريق العتاب

وهكذا تجد الشريف يتشمخ ويتباهى بجيمه وكوره ويضع نفسه في السلسلة الماجدة من آبائه التي اتصل فيها سبب الشرف، وأنجب فيها المجد. وقد اعتاد في شعره أن يستهل قصائده بذكر الناقة والبيداء وصهوات الجياد والسيف والدم وقفعة الأسنان ونخوة الشوس البهاليل، ثم يعرج على التخلص إلى الغرض الذي انثت له القصيدة كما يفعل الشعراء في استهلال قصائدهم، بالفزل والنسيب، ولا تكاد تستعرض الصفحة أو الصفحتين من ديوانه إلا وتجذ تلك الروح المتحمسة الوثابة ماثلة بين عينيك.

قال أخوه المرتضى (رحمته) في مقدمة كتابه "الناصریات":

ويعد: فإن المسائل المنتزعة من فقه الناصر (رحمته) وصلت إلى أن يقول: وأنا بتشييد علوم هذا الفاضل البارع أحق وأولى، لأنه جدي من جهة والدتي، فهي فاطمة بنت أبي محمد (أبي الحسن خ) الحسن بن أحمد أبي الحسين صاحب جيش أبيه الناصر الكبير، أبي محمد الحسن

بن احمد بن الحسين بن الحسن بن علي بن الحسين بن علي بن عمر بن علي السجاد زين العابدين بن الحسين السبط الشهيد بن أمير المؤمنين (عليه السلام) (وفي نسخة بعد قوله الكبير أبي محمد الحسين بن علي بن الحسن بن علي بن عمر بن علي السجاد (عليه السلام) والناصر كما تراه، من أرومتي وغصن من أغصان دوحتي، وهذا نسب عريق في الفضل والنجابة والرئاسة. أما أبو محمد الحسن الملقب بالناصر ابن أبي الحسين أحمد الذي شاهده وكاثرته، وكانت وفاته ببغداد سنة ٣٦٨هـ. فانه كان خيراً فاضلاً ديناً نقي السيرة جميل النية حسن الأخلاق كريم النفس، وكان معظماً مبجلاً مقدماً في أيام معز الدولة وغيرها. لجلالة نسبه ومحله في نفسه، ولأنه كان ابن خالة بختيار عز الدولة. فان أبا الحسين أحمد والده تزوج دبر حجر (كذا) صحير (كذا خ ل) بنت سهلان كساء الديلمي وهي خالة بختيار وأخت زوجة معز الدولة. ولوالدته هذه بيت كبير في الديلم وشرف معروف. وولى أبو محمد الناصر جدي الأدنى النقابة على العلويين بمدينة السلام عند اعتزال والدي رحمه الله لها سنة ٣٦٢هـ. فأما أبو الحسين أحمد بن الحسن فانه كان صاحب جيش أبيه، وكان له فضل وشجاعة ونباجة ومقامات مشهورة يطول ذكرها. وأما أبو محمد الناصر الكبير وهو الحسين (الحسن خ ل) بن علي ففضله في علمه وزهده وفقهه أظهر من الشمس الباهرة، وهو الذي نشر الإسلام في الديلم، حتى اهتموا به بعد الضلالة وعدلوا بدعائه عن الجهالة، وسيرته الجميلة أكثر من أن تحصى وأظهر من أن تخفى، ومن أرادها أخذها من مظانها، فاما أبو الحسن علي بن الحسين، فانه كان عالماً فاضلاً. وأما الحسين بن علي.

فانه كان سيداً مقدماً مشهوراً لرئاسته. وأما علي بن عمر الأشرف فانه كان عالماً، وقد روي الحديث. وأما عمر بن علي بن الحسين ولقبه الأشرف، فانه كان فخم السيادة جليل القدر والمنزلة في الدولتين معاً الأموية والعباسية، وكان ذا علم. وقد روى عنه الحديث. وروي أبو الجارود وزيايد بن المنذر قالاً: قيل لأبي جعفر (عليه السلام) أي أخوك أحب إليك وأفضل فقال أما عبد الله فيدي التي أبطش بها. وكان عبد الله أخاه لأبيه وأمه، وأما عمر فبصري الذي أبصر به، وأما زيد فلساني الذي أنطق به. وأما الحسين فحليم يمشي على الأرض هوناً، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً. انتهى كلام المرتضى. وقد نقلناه بطوله لما فيه من الفوائد التي تبصرنا بحالات الشريف النفسية.

وظائفه في الدولة وألقابه

وظائفه

النظر في أمور الطالبين في جميع البلاد. نيابة الملك في مدينة السلام. الخلافة على الحرمين.

للنقابة:

يدلنا التاريخ أن وظيفة النقابة في القرون الأخيرة من العهد العباسي كانت ضرورية في تشكيلات الحكومات الإسلامية، ولا بد منها لأجل سلامة الدولة.

من المعلوم أن انهيار العرش الأموي، كان نتيجة المؤامرات والثورات المتتالية التي كان يدبرها الهاشميون تحت الستار.

ولما استقامت الدعوة واستتب لهم الأمر، وتسم الهاشميون نسيم الحرية وشعرت شخصياتهم البارزة أن محاولة رد الحق المهتمض يمكن تحقيقها من ذلك الطريق، طمح من يرى أنه الأجدد والأولى بالحكم، ومن جهة أخرى كان العلويون على الأخص يتهمضون. لأن الأمر لم يرجع لمستقره، وما كانت مناصرة الخراسانيين والجماهير التي قامت في وجه الحكم الأموي إلا ولاء لهم ورغبة في خلاصهم، والسلطة العباسية كانت تشعر بذلك وتحسب له حسابه. فأعملت سلطانها وتدبيرها السرية وأنفقت جهودها في قمع تلك الروح العدائية العلوية والبطش بها. وظني أن كلمة (زيدية) صارت لقباً لكل ناثر في وجه الحكم في الأدوار العباسية، ولمن يشايح الثوار ويناصرهم. لأن زيدا (عليه السلام) هو أعظم الثائرين من هذا القبيل، والمتبع والمقتدي

(٢٨)وظائفه في الدولة وألقابهم ووظائفهم - النقابة

وخرجت كلمة (زيدى) عن كونها لقب نحلة و عقيدة حتى تسمى بها كل من ثار أو تمس للثورة، وإن لم يكن زيدياً يدين بهذه النحلة ويؤمن بها، كالشريف الرضي الذي ستقف على عقيدته.

ولما انحل الحكم العباسي واستبد الأمراء والملوك في أقطار الدولة، كان شرر الدعوة العلوية يتطير وأشرفها يتواثبون على السلطان، ومن جهة أخرى كان الناس وملوكهم يرون العلويين، الطبقة الممتازة التي لا يصح أن تشترك مع الجماهير في إقامة الحدود السياسية عليها، فكان من التدبير اللازم أن يترتب في ملاك وظائف الدولة وظيفة -النقابة- ويكون صاحبها ذا سلطة واسعة، وهي شبه حكومة في ضمن حكومة، لها أنظمة خاصة وقوانين استثنائية. والنقيب الذي يستخلف عليهم ويرعاهم ويتزعمهم، هو الذي يتصل ببلاط الدولة يتلقى أوامرها، وهو المسؤول عن أتباعه والقاهر لهم على النزول على مقدرات الحكم ويتولى تدبير شؤونهم وإحصاء نفوسهم وتطهير أنسابهم من الدخلاء، فلا تمس كرامتهم من ولاة الدولة وحكامها في إقامة العدل فيهم والتكليف مما يخشى منه، وللنقيب تقدير خاص ورتب سامية، وتعظيم واحترام من ولي الأمر، ويقول ابن خلدون، في كلامه على بعض الوظائف:

(وكذا نقابة الأنساب التي يتوصل بها إلى الخلافة أو الحق إلى بيت

المال) انتهى.

ويحدثنا ابن بطوطة بقوله: ونقيب الأشراف مقدم من ملك العراق، ومكانه عنده مكين ومنزلة رفيعة، وله ترتيب الأمراء الكبار في سفره، وله الأعلام والأطبال، ولقد سمي الظهير والمرسوم الذي يصدر من

السلطان في إسناد النقابة (اليرلغ). وجاء في كتاب "المصطلح الشريف" ذكر الشؤون التي يكلف بها النقيب وهي:

١- رفق بأولاد أمه وأبيه حيدرة والبتول (الحيث).

٢- كف من استطال بشرفه فمد إلى العناد يداً.

٣- إزالة البدع التي ينسب إليها أهل الغلو في ولائهم، فيما يوجب الطعن على آبائهم، من افتراق ذات البين. وجر أقوام إلى مصارع البين فللشيعة عثرات لا تقال، فليسد هذا الباب سد لبيب.

٤- النكال بمن ادعى الاعتزال أو مال إلى الزيدية أو اقتضى طرق الإمامية فيما ابتدعه، أو تمسك من عقائد الباطن بظاهر، أو تعلق بأئمة السر أو انتظر مقيماً برضوى، أو ربط على السرداب فرسه أو اشترط العصمة في مطلق الأمام.

٥- النظر في أمور أنسابهم نظراً لا يدع مجالاً للريب.

وجاء في المشور الصادر من ديوان الخلافة للمطيع لله، بتقليد نقابة الطالبين لأبي أحمد الحسين والد الشريف بمدينة السلام وغيرها من الأمصار من تلك الشؤون:

١- أحترامهم والعطف عليهم.

٢- من ارتكب منهم قبيحاً يعود على ديانتهم يجرح، لا يعجل عليه بالنكال بل لا بد من عدله وإنذاره قبل ذلك، فإن ارتدع وإلا أقيمت عليه الحدود.

٣- أن ييث عليهم العيون والأرصاد لينهوا إليه أبناءهم، ليكف من خرج عن الطاعة عن غيه.

٤- مخاطبتهم بالاحترام.

٥- حماية المناسب ثم المقابلة بغليظ العقوبة لمن ادعى نسبهم.

٦- تولى استيفاء الحق منهم بإيعاز حكام المسلمين.

٧- له أن يتخذ خلفاء عنه في الأقطار.

هذا شيء من أحكام النقابة وقوانينها أثبتناه هنا للتعرف بشخصية الشريف وكرامته الاجتماعية، وفيه فوائد لا تحفى على اللبيب، ويعلم مما أثبتناه أن النقابة لا ينالها إلا الأكفاء من الطالبين النابغين، ذوي الدرجات الشاخحة في العلم والقلم، والأدب والنسب، وباقي مميزات التفوق، ولقد كان الشريف لا يرى أحداً أحق منه ومن أبيه بها. وكانت بينه وبين أخواله منافسات حول التزاحم عليها، وربما كان ذلك من دسائس الخلفاء العباسيين تمسكا بمبدأ تلك الكلمة الحبيثة الماثورة (فرق تسد) وقد تحسدوا وتولى أبيه لها، ومن أجل ذلك كان يتذمر منهم في شعره ويشنأهم بأن أشخاصهم لم يكونوا أهلاً لمدائحه، وإذا مدحهم فأثما يمدح نسبه المتصل بأنسابهم، فمن ذلك قوله لأبي الحسين في آخر القصيدة التي يهنيه بها:

إذا مدحتك لم أمنن عليك به فالمدح باسمك والمعنى به نسبي

وقد عتب عليه فاعتذر له بقصيدة أكثر فيها من مدائحه الشخصية
مطلعها:

لك الموابق والأوضاخ والغرز وناظر ما تطوى عن لحظه أثر

ولقد ولي النقابة والد الشريف ثم اعتزلها سنة ٣٦٢هـ، فولياها أبو محمد الناصر، ثم أعيدت له ثم وليها أحمد العمري، نسبه إلى عمر الأشرف أحد أخوال أم الشريف، وذلك مدة اعتقال والد الشريف بالقلعة بفارس، وهي عشرون سنة. ولما أفرج عنه وعاد ردت إليه. ولما

شاخ وليها الشريف نيابة عنه، واستقلالا بعد وفاته على أصح الروايات. وهو في ذلك تارة يستقيل عنها وأخرى ترجع إليه، وإذا وليها تشدد في إقامة الهيبة لها، وقد يضيق صدره منها لأنها دون حقه وفيها اصطناع، ومنة لمن أسندها إليه، وفي ذلك يقول:

ولسي انف كلف لليث يلبي شميمي للمئلة استيفي
إذا عد المنقلب جاء بهتي بجر ذبول أحصاب ضوافي
ويقول لما واصل الاستقالة عنها وأسندت لمن بذل عليها الأموال
سنة ٣٤٨ هـ:

محمدا طالما شمرت فيها فدونك فاسحب الذيل الرفلا
براه المستعير علي طوقا فيغطني به وراه غلا
ويروي لنا ابن أبي الحديد، إن أبا الشريف توفي وهو متقلدها، ثم أن الشريف تولاهما بعد وفاته واختلف في السنة التي تولاهما نيابة عن أبيه هل هي سنة ٣٨٨ هـ أو سنة ٣٨٠ هـ؟ ويشهد لهذا القول الرواية الآتية للسنة التي أنشد فيها حاجب الطائع قصيدة الشريف في مدحه.
والذي ولي الشريف الطائع لله، وأقام لذلك احتفالا خلع فيه على الشريف أيراد التقابة، ورتبة رتبة أبيه، وهي أشرف المراتب وكان أول طالبي جعل عليه السواد، وفي ذلك يقول شاكرا:

الآن أعربت للظنون وعلا على الشك اليقين
إلى أن قال:

وأضاء لي زمني وأيامي الفتى بيض وجون
فأفريقت للخلع السواد على ترشفها العيون

(٣٢)وظائفه في الدولة وألقابهم ووظائفهم - النقابة

وكان صنيع الطائع هذا جزاء على قصيدته التي يمدحه بها ويتنجز وعده بالأذن في الوصول إلى حضرته، والتي أنشدها حاجب الطائع ابن عبد العزيز سنة ٣٨٠هـ على ما روى، والتي مطلعها:

متى لنا قلم اعلى مقامى ولاى نور وجهك والسلام

وفي سنة ٣٩٧ هـ أول يوم جمادى الأول^(١) بعث إليه بهاء الملك من البصرة إلى بغداد مرسوماً بتولية النقابة وأمانة الحج.

والنقابة ووظيفة في الدولة، لا تكتسب صفتها الرسمية ما لم تصدر بها إرادة ملكية من البلاط أو بمن يمثله ويخول له ذلك.

وكان صاحب عميد الجيوش قد كلف الشريف في ذلك اليوم، النظر في تلك الأعمال وألزمه بهافي بغداد فقط - فكان ذلك اتفاقاً غريباً. وقد ثقل ذلك على بهاء الدولة لما بلغه، لأنه كان يؤثر أن يكون هو المتبدي بالمنة والسابق للصنيعة. فكتب إليه الرضي يعتذر من قبولها من عميد الدولة من قبل أن يصل إليه ظهيره بذلك قصيدة مطلعها:

كيف اضاء البرق إذا ومنضاً منابت الرمث بذات الغضا

ومنها:

قل لبهاء الملك إن جهته سود دهري بك ما بيضاً

وقد حسده أعداؤه على تقلده للنقابة، وقلقوا لما جرى له من مراسم التقليد. ولكن الشريف يراها دون حقه ولا تشبع مطامعه السياسية إلا الخلافة وفي ذلك يقول:

(١) ويروى في جمادى الآخر.

قلقَ القَدوْ وقدَ حظيتَ برتبةٍ تعلو عن النظراء والأمثال
لو كنتَ أفتَحَ بالنقابةِ وحدها لغصتَ حينَ بلغتَها آمالي
لكن لي نَفْسٌ تتوقى إلى التي ما بعد أعلاها مقامَ عالي

ثم ان بهاء الدولة امر في يوم ١٦ من المحرم سنة ٤٠٣ هـ أن يضاف إلى أعمال الشريف، النظر في أمور الطالبين في جميع البلاد. ويروي أنه لم يبلغ ذلك أحد من أهل هذا البيت. واجتمع الناس في دار فخر الملك لاستماع الكتب الواردة بذلك، وفي هذا يقول الشريف:

من بني ساسان ألقى ضرب حجرُ الملكِ عليه والسد
ما رأينا كلبيه ناجلا ولد الناس جميعا بولد
أن يكن تاجا وعضدا فلينه درة التاج ودملوج العصد
يا معبد الماء في عودي ويا مثبتتي بعد اضطرابي وأود
كل يوم لك نعى غضة تعقد الفخر باطواق جند

والشريف لا يرى أحدا أحق وأجدر منه بالنقابة ولكنه يزهد فيها، وتتوق نفسه لما هو أسمى منها، وإنما يتنازل لقبولها لأنها من حقوق أسرته، وفي ذلك يقول:

قل للبدى موتوا بغضكم فإن الغرض مردي
ودعوا علا أحرزتها يا واد عين بطول جهدي
ولي النقابة خال لمي قبل ثم أبسي وجدي
ووليتها طفلا فهل مجد بعد مثل مجدي
واظن نفسي سوف تحملني على الأمر الأثمد
حتى أرى مملكا شرق العسى والغرب وحدي

وفي هذه الأبيات شواهد على تاريخ تولي النقابة أسرة الشريف تداولها، ومتى تولها الشريف نفسه.

إمارة الحج:

إن إمارة الحج سلطة مطلقة، وحكومة سيارة محدودة يتولاها أمير الحج بإرادة ملكية على حجاج أقطار معينة لا تتعداها، وربما تتعدد الأمراء في عام واحد لأقطار مختلفة.

وقد أحصى المسعودي في كتابه "مروج الذهب" أمراء الحج إلى زمانه. والأمير حاكم مطلق في القضاء بين حجاجه وقطع خصوماتهم وفي حلهم وترحالهم ودفع الأخطار عنهم وإقامة العدل حسب مشيئته المطلقة فيما بينهم.

ولابد من هذه الإمارة في تلك القرون، عندما يتقلص نفوذ الدولة ويفتر الحكم في البوادي القفار، ويتوغل الحجاج فيها ويتعرضون للأخطار. والأمير زعيم مسؤول مزود بقوة مسلحة، وذو كرامة شخصية واسعة، يعتصم بهما قطار السفارة عند الأصحار من الغزاة والمغيرين الذين يسدون المنافذ إلى بيت الله الحرام. وقد كان يصدر بها من ديوان الحكم مرسوم خاص للأمير ينهيه الملك ويمضيه الخليفة. وقد جاء في المرسوم الذي قلده به أبو الشريف الرضي إمارة الحج، وكان من إنشاء (الصاهبي) قوله:

(فأنهى معز الدولة أبو الحسين أحسن الله حياته أمر رفاق الحجيج الشاخصة من العراقيين وإشار تقليد تسييرها إلى الحرمين الاعتماد عليك في حمايتها وتوليك الحرب والأحداث فيها فوافق رأي معز الدولة أبي الحسين تولى الله كفايته الصواب ووقع عند أمير المؤمنين موقع القبول والإيجاب فاستخار الله وأمضاه إلى آخره).

وفي هذا المرسوم قلده إمارة حجيج مدينة السلام، والبصرة والكوفة وذكر له وجائب هي:

- ١- حياطتهم ورفاهيتهم في المسير.
- ٢- المساواة بين ضعيفهم وقويهم وشريفهم ومشروفهم.
- ٣- منعهم من الزحام والتجاذب وذلك بترتيب قوافلهم.
- ٤- صد أوائل القوافل عن التسرع وحواشيها عن مفارقة المنهج.
- ٥- أن يكون مسير الأمير على الساقة لثلا ينقطع منقطع.

وقد روى المسعودي في مروج الذهب، أن إبراهيم بن موسى بن جعفر (عليه السلام) (الجد الأعلى للشرىف) هو أول طالبى أقام للناس الحج فى الإسلام. ثم قال: (على أنه قام متغلباً عليه، لا مولى من قبل خليفة). انتهى.

وقد ناقض بهذا قوله فى أحوال المأمون: (أنه حج بالناس إبراهيم بن موسى بن جعفر أخو الرضى بأمر المأمون). انتهى.
ولا ريب أنه أراد بقوله أقام الحج أنه أمير الحج بقرينة قوله لا مولى من قبل الخليفة، وبقرينة ما ذكره فى أحوال المأمون، ويمكن الجمع بين كلاميه بتكلف.

ويحدثنا ابن بطوطة، أن عند أمير الحج نواضع كثيرة لأبناء السبيل يستقون منها، وجمالاً لحمل زاد الصدقة، ومعه الأدوية والأشربة والسكر لمن يصيبه مرض، وجمالاً لمن لا قدرة له على المشى، وان ذلك يكون من صدقات السلطان. وللركب وقطارهم أصول متبعة وأنظمة مرعية، وإرادة أميرهم فوق كل إرادة، وتحت لوائه العدة والعدد يدفع بها عادية الأعراب التى تهاجم قطاره للسلب والنهب.

(٣٦)وظائفه في الدولة وألقابوظائفه -إمارة الحج

والشريف قد مارس إمارة الحج منذ صباه ، تولاهما في أغلب أعوام
عمره وزيراً لأبيه، ونائباً عنه، ومستقلاً فيها. وقد تذوق في ذلك منذ
نشأ ما افتنتت به نفسه وخالط أعماقها من المطامع والمطامح السياسية.
وكانت هذه الإمارة تجربة ومثالا مصقولاً مصغراً من تلك الرتبة
السامية، والشأن الإسلامي العظيم الذي يتوق إليه. ويرى أنه الأجدر
به من أولئك المهتمضين المتفهلين، وقد أذكت في نفسه شعوراً عميقاً
ملتهباً. فكان إذا رجع إلى بغداد وتطامن لأحكام السلاطين والخلفاء،
وانتقل من دور سيد إلى مسود ومن سلطان إلى رعية، أضجره الحال
ويش من ذلك وطفق يتذمر من عاصمة العباسيين، منقطع إمارته
ومنتهى تخومها فيقول سنة ٣٢٤هـ:

مالي لا أرغب عن بلـدة ترغب في كثرة حسـدي
ما الرزق بالكرخ مقيماً ولا طوق للعلى في جيد بغداد

ويحن إلى تلك البوادي والقفار التي يتلابس فيها مع السلطة
والأمانة، والتي فيها طوق العلى. ويتعشق مضارب أطابها ومراتع
غزلانها، وتطيب نفسه بذكرى تنسم نسمات أجوائها ومشاهدة
أطلالها، ويستعرض فيها تاريخ الغابرين من أشياخه، وهي مغرس
مجده وفيها مستنبت دوحه العلى، فكان يبدع في شعره عند ذكرى
ذلك، وتفيض علينا قريحته بأرق ما نقرأ في ديوان شعره فيقول:

عارضاهي ركبا للحجز أسا بله متى عهدك بسكان سلع
فلتني أن أرى الديار بطرفي فلطي لرى الديار بسمعي

ويقول:

يا قلب ما أنت من نجد وسلكنه حللت نجدا وراء المئلاج الساري

يا راكبان قلالي واقضيا وطري
وخبراتي عن نجد بلخباري
اهل لبيت ودار عند كاتمة
داري وسملرُ ذاك الحي لسماري
ويقول:

أراك سثحث للقلب وجدا
إذا ما الضعتن ودغن نجدا
إذا أطلع الركب بيمته
أحي الوجوه كهولا ومردا
وأسألهم عن جنوب الحمى
وعن أرض نجد ومن حل نجدا
لنا من تعج الورى باسمه
إلى الله ندعوه في المجد جدا
بنا اتقد الله هذا العريب
حتى استقلم إلى الدين فردا

ويقول:

خذي نفسي يا ريح من جنب الحمى
فلاقي بها ليلا نسيم ربى نجد
شممت بنجد شبحاً حاجرية
فلمطرثها نمعي وقرشثها خدي
ويلتهب الوجد فيه فيذيب عاطفة الأسى
في عاطفة الأسف ويمزج
ما بينهما فيقول:

قله ما لجمع المزمـن
وجمع لقلبي والمسجد
بضاع فينشد قعب الغبوق
وقلبي بضاع فلا ينشد

ويقول عند توجه الناس للحج سنة ٤٠٠ هـ:

أقول لركب رالحين لعلكم
تحلون من بعدي العقيق اليمانيا
خذوا نظرة مني فلاقوا بها الحمى
ونجدا وكثبان اللوى والمطالبا

وفي طريق الحج معاطب وأهوال، ومخاوف ومقارعة أبطال، ففي
سنة ٣٨٩ هـ حج الشريف فأعتقل في أثناء الطريق هو والمرضى ابن
البراج الطائي فافتديا من أموالهما بتسعة آلاف دينار. ذكر ذلك في
كتاب إتخاف الورى.

(٣٨)وظائفه في الدولة والقابض وظائفه -إمارة الحج

وفي الحجيج مطمع وسلب أموال ونشب، فهو مرعى الغزاة وأكلة القطاع، وفيه تروج سوق البسالة، وتغلو سلع التضحية وتنفق بضاعة الفتوة وتستمدد البطولة، فكان تردد الشريف في ذلك الطريق في أعوام كثيرة من عمره، يوجب أن تتولد في نفسه مزايا النخوة، والذب عن كرامة المعاصم، وتزكو فيها الفحولة وخيلاء الشجعان، وترتاح لعجيج الخيل تحمى الذمار من الذمائر، وتستغم مطربة لاصطكاك القنا ووقع الحديد، وقد نفخت تلك الأحوال روحا في شعر الشريف وتيمته إلى مواعقتها، وملأت ديوانه بوصفها، وصيرته بحق شاعر الحرب، شاعر النخوة، شاعر الفحولة، شاعر الحديد والدم، ولو أردنا أن نورد شاهدا على ذلك من شعر الشريف لأوردنا شعره كله.

ولا تنكشف الكرب كلها في البوادي والقفار، ولا يستطيع السيف وحده أن يجمي القطار، بل لابد من الموافاة بعد ذلك إلى المصانع، وشد الصلات بالأمرء والسراة المالكين على نواصي البوادي، المتنفذين بأقوامهم في مجاهلها والمصرفين لمقدراتها، ولا بد للشريف أن يعمل هذا التدبير.

ومودته (لابن ليلي) كانت من هذه الناحية، ثم اطردت واستدرجت الشريف إلى أن كان يفشي إليه بسرائه وأمانيه وخواطره وما يجيش في نفسه وكان يقع ذلك في جو ملائم، وكأنما ظفر كل واحد منهما بصاحبه الذي لا يستغني عنه، ووزيره إلى الغاية التي يطمح إليها، فمن هذا الأعوان والفرسان ولذاك الخلافة والسلطان وفيهما المزايا متوفرة.

ولقد وجدت دعوة الشريف في ابن ليلي تربة طيبة لأن تزكو فيها مطامعه ومطامحه ومنبتا خصبا تنمو فيه. وسيتضح لك أن الشريف كان يقيم أمنيته على دعائم ثلاث :

مواهبه الشخصية، وابن ليلي، والصابي، وكل واحد منها يكمل به النقص من ناحية وهي عناصر نجاحه.

و(ابن ليلي) شخصية مجهولة، افنتت كما فتن الشريف بشخصيته.

ولكن متاعبي في التفتيش والفحص عنه كاعتماد الشريف عليه، ما ربحنا منهما إلا الخسران.

(ابن ليلي) لا يعرفه المتبع في أسفار الأدب والتاريخ، إلا في ديوان

الشريف ففيه يعثر بطود من المجد أشم ويفرق في بحر من الجود خضم، ولا ريب أن في مدائح الشريف له مبالغة وخيال. ولكن واحد من المثة يكفينا لأن نعرف أن أبا العوام من شخصيات التاريخ العربي البارزة يرفعه الشريف بمدائحه حتى يضعه على هام العيوق، ويكي لفقده حتى يندى الثرى بدموعه، ويتشوق إليه حتى لا يمر الكرى بأجفانه، ولا ريب أنه كان من سراة البوادي، وكان عظيما من عظمانها. ولو لم يكن عظيما بهذه الدرجة لما استفز خيال الشريف إلى هذا الحد، إلا أنه قد أطبقت عليه القرون ولم يحس به رجال التاريخ، ولطعه النسيان من صفحات القفار.

ومن الجائز أن تكون مودة الشريف له موروثه من أبيه، وقد

تأسست لأبي الشريف مودات كثيرة لأقطاب البوادي في غدوه ورواحه بين الحجاز والعراق، وهالك ترجمة ابن ليلي من شعر

(٤٠)وظائفه في الدولة وألقابوظائفه بإمارة الحج

الشريف. ففي قصيدته التي يصف فيها سفره الى مكة يقول سنة
٣٩٤هـ:

أخ لي إن أعيت علي مطلبسي رعى لي أغراض المعنى فاصبها
به خف عني ثقل فادحة النوى وحبب عندي نايها واغترابها
بعين ابن ليلى لا تدلوي من القذى يربب ألقى رعبه ما أربها
وابن ليلى هذا أبو العوام لقوله:

كأنه لم تلد بهورضت أبا العوام فتبتنا قطاطا
ومن جعل الدليل له ابن ليلى فلن يخشى الضلال ولا الغلطا
ولقوله في رثاء بأسلوب بدوي، يتناسب مع سمات ابن ليلى أبي
العوام البدوية:

ما هاج من ذي طرب مخلص ليلى أبي العوام والقلاص
ابن أبو العوام للعواصي يروضها والخيل والدلاص
قد ابن ليلى قلاد المعاصي كان سواغي ففدا اغتصاصي

وليس هو عميدا آخر يتحصن الشريف بنفوذ، ويستغله لدفع
الأخطار والفوز بالأمان، كان مثل ابن ليلى لهذه الشواهد التي
أوردناها. إلا أن الذي في ديوان الشريف المطبوع في بيروت ما ينافي
ذلك. فقد جاء في ترجمة الأبيات التي يقول فيها:

قل لأبي العوام مستنقعا به جماح القدر لنقل
يا نجوة الخائف من دهره ويا ثقاف الخطل المقل

إنها أنشئت سنة ٣٩٨ هـ وجاء في ترجمة أبياته التي أولها:

تعرف الطير فبقا أنه أن ابن ليلى علقته علوق

إنها أنشئت سنة ٣٩٣هـ في رثاء ابن ليلي البدوي، ويمكن أن ترتفع المنافاة إذا تركنا ظاهر الترجمة، إلا إنني لا أعتمد على هذه النسخة المطبوعة في بيروت، فإن فيها من الأخطاء في الطبع والوضع شيئا كثيرا يضيق المجال عن إيراده، وابن ليلي أبو العوام اسمه عمرو ولقوله في رثائه:

أداري المقلتين من ابن ليلي ويلبي بمعها إلا لجاجا

وأين لفارس الفرسان عمرو إذا رزء من الحنثان فلجا

وابن ليلي أبو العوام عمرو هذا هو من بني عامر ابن لوي، وقد قتله رجل من بني تميم لما دعا بني تميم لدعوة الشريف فخالفوه فرثاه بقصيدة هي من مختار ما يروى من شعره في الفن الذي يمتاز به شعر الشريف، وهو الرثاء والحماسة:

لعمر الطير يوم ثوى ابن ليلي لقد عكفت على لحم كريم

واقسم أن ثوبك يا ابن ليلي لمجموع على عرض سليم

أرجو للحواضن كلبن ليلي أحلت أنن على بطن عظيم

وكان الشريف يعتمد على ابن ليلي في البداية وهو جيشه المجهز، ويعتمد في العاصمة مستقر الحكم والسلطان على الصابي، وهو الذي يربأ له في دواوين، ويرشده في مداحض السياسة. وسأريك هنا شيئا من وجه الصلات بينهما.

الصابي والشريف: أما أسباب المودة وموجبات الصلات ما بينهما

فهي أمور:

- ١- مودة الصابي لوالد الشريف التي نشأ عليها الشريف.
- ٢- علائق الصابي مع بختيار وستعرف صلات الشريف مع بختيار.
- ٣- الأدب وهو لحمة كلحمه النسب.
- ٤- إن فحولة الشريف وكفائه وكرامته ولدت في نفس الصابي عقيدة فوز الشريف في محاولته الخطيرة وبهذا الفوز ضمان المستقبل.
- ٥- خبرة الصابي وتجاربه رغبت الشريف أن يحصر اعتماده على ذلك الشيخ المحرب.
- ٦- اتفاقهما على مقت العاهل العباسي ورئيس الدولة.

أن أبا إسحاق ممن حلب الدهر أشطره وذاق حلوه ومره، ولايس خيره ومارس شره، ورنس ورأس وخدم وخدم، وكان يحسن المعاشرة مع المسلمين، يصوم معهم شهر رمضان، ويحفظ القرآن حفظاً يدور على طرف لسانه. ازدهرت أيامه في عهد المهلب، فلما هلك اعتقل ثم أفرج عنه وأعيد عمله ولم يزل ينخفض ويرتفع حتى نكبه عضد الدولة بسبب ظهير أنشأه على الخليفة في شأن (بختيار) عز الدولة، ولما ملك عضد الدولة بغداد وسائر العراق دبر تدبيراً للفتك بأبي إسحاق، فأمره أن يألف كتاباً في أخبار الدولة الدبلوماسية فأمثل الأمر وسمى كتابه "التاجي" ومكر له بخلق أسباب النكال لزلة يؤاخذ بها، فان الدولة لا يخلو تاريخها وتاريخ ملوكها عن مظالم وهفوات، ومساو وسيئات، إن أوردها أو لم يوردها فهو واقع في الفخ الذي دبر له، وربما يكون منها ما هو في شأن رجال يرغب عضد الدولة ذكرهم بالسوء. ولكنه في

ذلك الوقت بعد ذلك جريمة من أبي إسحاق لا تغتفر، إلا أن الكيد والمكر اللذين خادعه بهما، لم يحتج إليهما في إرواء أحقاد من أبي إسحاق. فقد دخل عليه بعض من أصدقائه وهو في شغل شاغل بكتابه فسأله عما يعمل؟ فقال: «أباطيل أنمقها وأكاذيب ألقها»، ولعله قد أعجل بعضد الدولة حقه عليه فمكر به وأرسل إلى الصابي خائنا من أودائه يتهمه بهذه المقالة فلا يظن فيه أنه يتهمه بذلك، ولما سمعها عضد الدولة أمر به أن يوطأ أخفاف الفيلة، فشفع فيه رجال الديوان يقبلون الأرض من بين يديه، فعفا عنه وأمر بالقبض عليه، واستقصى أمواله ومصادرتها وبقي في اعتقاله بضع سنين، ثم أفرج عنه وقد ساءت حاله.

أترى أن أبا إسحاق لم يكن من الناقمين على الدولة والشائنين للمليك البلاط، وقد أفقده العدم وكبر السن أن يستعيد مقامه الأول. وشخص مثل أبي إسحاق نشأ في أحضان الدولة وملك ناصية أمرها، وبلغ أقصى درجة فيها. إذا خسر مقامه وطرده من ابوابها، لا بد أن يتصل ويميل إلى من يرشح نفسه ويعدها ويستعد للتوثب عليها، وهدم عروشها ويرى أن من حقه سلطانها وهؤلاء جميعا لا بد أن يستكتلوا فئة وحزبا، ويتفاهموا عصابة وحزبا، ولقد كان من أهم الأسباب للفتك بأبي إسحاق بمآلاته لبختيار الذي كان كاتب إنشائه وكلمته في حقه، وبختيار هذا كما علمت، ابن خالة جد الشريف لأمه. الأمر الذي كان من أهم أسباب الصلة بين الشريف والصابي منكوب عضد الدولة - الذي فتك ببختيار وجنوده كما هو معلوم في التاريخ - وأبو إسحاق أديب، يستهويه الخيال ويتحول في نفسه إلى حقيقة ماثلة، فكان

(٤٤)وظائفه إمارة الحج الصابي والشرف

لحماس الشريف ونزعاته الخيالية مأخذ في نفسه يستضيء به لنيل آماله واستعادة كرامته، وأبو إسحاق وإن كان متشدداً في أصل الدين ولكنه يقيم بعض الشعائر الإسلامية، وله في ذلك غايات، وهذا من الملق الذي يحذقه أصحاب الملوك. كل ذلك شد موثيق المودة ما بينهما، وربما كان الشريف يطعم في إسلامه على يده، كما أسلم مهيار على يده، وبلغت مودة الشريف له أن يقول فيه، ولقد عرضت له زمانه صار يحمل لأجلها في محفة:

ولو أن لي يوم على الدهر إمرة وكان لي العوى على الحدثنان
خلعت على عطفك برد شبيبتي جواداً بصري وأقبلت زمتمسي
وحملت ثقل الشيب عنك ملقرقي وإن قل من غربي وعض عنقي

وهذه هي الغاية فيما يتمناه صديق لصديق ومما يفصح عن نوع

الصلة التي بينها قول الصابي في حق الشريف:

أبا حمصن لي في الرجال فراسة تعودت منها أن تقول فتصدقا
وقد خبرتني عنك أنك ملجذ سترقي من الطيام أبعد مرتقى
فوفيتك التعظيم قبل لونه وقلت أطلني الله للسيد البقا
واضمرت منه لفظة لم أبح بها إلى أن أرى إطلاقها لي مطلقا

وجواب الشريف له:

لأن أبرقت مني مخايل عارض بعونك يقضي أن وجود ويخفا
إلى أن يقول:

شاطرك العز الذي استغفده بصفقة راض بن غيب واملقا
فتذهب بالشطر الذي كله غنى وأذهب بالشطر الذي كله شفا

ولما توفي أبو إسحاق سنة ٣٨٤ رثاه بقصيدته المشهورة التي

مطلعها:

أرأيت مَنْ حملوا على الأعداء أرأيت كيف خبا ضياء النادي
قد كنت أهوى لنشاطرة الردى لكن أراذ الله غير مرادي
للفضل ناعنبا بيننا إن لم يكن شرفي مناسبه ولا ميلادي

وللمرتضى هنا كلمة في حق الصابي معروفة.

والدة الشريف: ولوالدة الشريف البرزة الرزان التي كانت تقص

عليه مآثر آبائها وترضعه مع درها أمانى النقابة والخلافة، وتنفحه بالمال

في ذلك السبيل، أثر في مودة الشريف للصابي (كاتب بختيار الدولة)

التي تتصل معه بصلة رحم، وعدو عضد الدولة الذي فتك به،

والسلطات الفردية من شأنها أن تعتمد المداهنات، واستغلال وشائك

الشخصيات واستدراج السراة والذوات، ثم من بعد ذلك تفترس

الشعوب المحكومة لها وتشعب منها شهواتها. وعلى هذه الأسس الفردية

تكون الخطوة أو النكبة.

ولما توفيت سنة ٣٨٥ هـ جزع الشريف على وفاتها جزعا شديدا،

وفي قصيدته التي يرثيها بها ألماع لما ذكرنا، فمنها:

ومن الممول لي إذا ضاقت يد ومن المليل لي من الأنواء
لو كنت مثلك كل لم برة عني البنون بها عن الآباء
أبفك الغر الذين تفجرت بهم ينبع من النمام
من ناصر للحق لو داع إلى منبل الهدى لو كشف الغمام
نزلوا بعرة العنم من العلى وعلوا على الأتجاج والإمطاء

رد المظالم:

كانت الخلفاء والملوك تعد يوما خاصا تتفرغ فيه لرد المظالم، ويؤذن فيه لأهل الظلامات كافة برفع ظلاماتهم إليهم مباشرة. وربما تستيب شخصا يمثلها في ذلك، إذا صدها عن الحضور في ذلك اليوم عارض، وقد شبه ذلك بعض الكتاب في مجالس التمييز والاستئناف ولا يفي هذا التشبيه ببيان الحقيقة فان الذي يعرض في ذلك اليوم كل ظلامة في خصومة أو في غيرها نظر فيها القضاة، أو لم ينظروا ولا يكون ذلك إلا في الحكومات الاستبدادية المطلقة. ثم تطور الشأن فكان ذلك وظيفة وتمثيلا دائميا وسميت (ولاية ديوان المظالم) ولا ينالها إلا ذوو الدرجات الرفيعة والمراتب الشائخة، والأنساب العريقة في المجد مع طهارة وجدان، ونزاهة وعفة، وفقه واسع بجميع أحكام الأحوال الشخصية الشرعية. وقد تولاهما الشريف سنة ٣٨٨هـ هي والنقابة وأمانة الحج، على ما روى ابن خلكان. ويظهر من الحديث الذي ذكره أبو الحسين الصايبي وابنه غرس النعمة محمد في تاريخهما حول قول الشريف:

(ما مقامي على الهوان وعندني) الأبيات والذي نقله ابن أبي الحديد، إن الذي ولاه ذلك هو القادر بالله.

النظر في أمور الطالبين في جميع البلاد أو نقابة النقباء

ذكرنا أن بهاء الدولة سنة ٤٠٣هـ ولاه ذلك. وان فخر الملك أقام في داره حفلة عامة لذلك، وتلى فيها مرسوم بهاء الدولة، ودعا الشريف نقيب النقباء. ولكنني لم أظفر بما يوضح لي حدود هذه الوظيفة. ولا ريب أنها نوع من النقابة بشكل أوسع، ولا علم أن إطلاق (نقيب النقباء) على الشريف من جهة أن صاحب هذه الوظيفة يلقب بذلك أو أن تلك تسمية عرفية تكريمية.

نبذة الخلافة بمدينة السلام:

في سنة ٣٨٨هـ قلده بهاء الدولة نيابة خلافة بمدينة السلام، وخلع عليه خلعا فاخرة.

الألقاب

الألقاب: الرضي ذو الحسين. الشريف الجليل. الشريف الأجل. ذو

المتقنين.

الإنسان بطبيعته ميال إلى الزهو ، تواق بفطرته إلى التفوق، شغف بكل ما يميزه على غيره، تلك غريزة ملاصقة للنفس كيفما تكيفت وحيثما وجدت، ولذلك ترى أن منح الألقاب والرتب من العادات القديمة المنتشرة بين جميع الأمم والشعوب أيا كان شكل حكومتها. وطالما تزلف بها رجال الحكم لرعاياهم واستصنعوا بها، واستكان ذوو الألقاب لأولئك الذين منحوهم ما يخول لهم حق التشامخ على من كان عطلا منه. والناس فيها فريقان، فمنهم من يراها زينة فارغة ومجدا باطلا وبهجة كذابة، وآخر يقول عنها إنها شارة شرف وشهادة نبل ودليل مروءة ورفعة. وقد تبادر فكر إلغاء الألقاب إلى رجال الثورة الفرنسية لأنها كثيرا ما كانت موضوع تجارة سافلة من مانجيتها، وذريعة للإعجاب والغطرسة من نائليها. إلا انه لا ينكر أن بعض الأعمال الجلى لا يمكن إثابة من يقوم بها بغير الألقاب والرتب، وقد تكون من بواعث النشاط. فلا بد فيها من مراعاة الجدارة وما الألقاب في الحقيقة إلا كمصباح يحمله الإنسان فييدي عيوبه إن كان ناقصا ويظهر محاسنه إن كان كاملا. وقد لقب النبي (ﷺ) بعض أصحابه (ببني الشهداءتين).

وللألقاب شأن عظيم عند اليونان والرومان والفرس، ولا يزال هذا الشأن عند الشعوب والحكومات على اختلاف أنواعها حتى اليوم. وعلى هذا جرت الحكومات الإسلامية في تقدير عظمائها باسداء الألقاب إليهم. ولقد كان الشريف، ممن يحمل أسمى الألقاب التي يرمز بها إلى مقامه الفخم. فقد لقبه بهاء الدولة في سنة ٣٨٨هـ (بالشريف الجليل) في واسط، وسيره إلى بغداد في موكب ملوكي. فلما وصل بمدينة السلام حدثت فتنة وشغب فيها، فرفع إلى بهاء الدولة بعض أعوانه وشايعه، فعتب على الشريف. فكتب إليه من بغداد قصيدة ينفي فيها ذلك منها:

ملك الملوك نداء ذي شجن لو شئت لم يعتب على الزمن
ين كان لي ننب فلا نظرت عيني ولا سمعت فن أنسي
وقوله:

لما عهد نصك التي نشطت لملي وقهض عزمها لملي
وفي هذا البيت تصاغر من الشريف قلما نجده في ديوانه، إلا أن للظروف أحكاما. وفي سنة ٤٠١هـ أمر قوام الدين الملك أن تكون مكاتبه الشريف بعنوان (الشريف الأجل) مضافا إلى مخاطبته بالكنية، بعد أن كان يتجاهل بالشريف الجليل، ابتداء من غير استدعاء. وقد شكره الشريف بمستهله بقوله:

ثورتها تتعل للظلاما لانقوا لبقين ولا سلاما
وفي سنة ٣٩٢هـ صدر مرسوم من واسط بتلقيه (بهذي المنقبتين) وفي سنة ٣٩٨هـ لقبه بهاء الدولة (بالرضي ذي الحسين) وقد شكره بمستهله بقوله:

يد في ققم العضب فما الاظطر بالضرب

عقيدته من شعره

كتب التاريخ ومعاجم التراجم وأسفار الأدب وطبقات الكتاب والأدباء والعلماء، طبقة طبقة من عصرنا هذا إلى عصر الشريف مطبقة ومتفقة، على أنه شيعي إمامي وقد يند شاذ فيبرم رأياً في عقيدة الشريف إن هو إلا كخاطر تاريخي خاص أشبه بالتهمة والنبز، فيدعي أنه كان زيدياً أو أشعرياً وقد ذكرنا سبب نسبه إلى العقيدة الزيدية فيما مضى من هذه الترجمة.

وللشيعي الإمامي عقيدة يقطع فيها عن الطوائف الإسلامية كافة وينفصل بها عن سائر فرقها وهي تستقيم في حدين، مبدأ الإمامة ومنتهاها وهما أن أبا الحسن علياً (عليه السلام) هو الخليفة بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) بلا فصل بنصه، وإن ابن الحسن (عليه السلام) بشخصه هو القائم المنتظر والإمام الثاني عشر الذي يكون الشريف في طبقة في سلسلة نسبه العلوي وهذه العقيدة يفصح عنها الشريف بجلاء في شعره فيقول من قصيدته يرثي بها الحسين (عليه السلام):

معشر منهم رسول الله	والكاشف للكرب إذا الكرب عرى
صهره البائل عنه نفسه	وحسام الله في يوم الوغى
ثم سبطاه الشهيدان فذا	بحسا العم وهذا بالظبي
وعلي وابنه الباقر	والصديق وموسى والرضا
وعلي وأبوه وابنه	والذي ينتظر القوم غدا
نزل الدين عليكم بيتكم	وتخطى الناس طراً وطوى

(٥٠) عقيدته من شعره

وقد مر عليك قوله: (أخذنا عليهم بالنبي و فاطم) وقال يتلهف
لذكرى الأئمة الأثني عشر، ويعد المواضع والمراقد المشرفة بهم ويشير
إلى ما اختص الشيعة بالاعتقاد به وبروايته من كرامات أمير المؤمنين
علي ابن أبي طالب (عليه السلام):

سقى الله المدينة من محل	لباب الماء والتطيف العذاب
وجاد على البقيع وساكنيه	رخي الذيل ملأن الوطاب
وأعلام الغري وما استباحت	معلمها من الحسب اللباب
وقهرا بالطوفوف يضم ثلثوا	قضى ضمأ إلى برد الشراب
وسامرا وبغداد وطوسا	هطول الودق منخرق العباب

ثم لا يكتفي بما أجمل فيه الإشارة من قوله (وبغداد) حتى يفصح
بما هو أصرح فيقول:

ولي قبران بلزوراء أنسى	بقربهما نزاع واكتنأبي
قسيم النار جدي حين يلقي	به باب النجاة من العذاب
ومن سمحت بختمه يمين	تضن بكل عليه الكعب
وسقى الخلق والمهجات حرى	وفتحة الصراط إلى الحساب

وقوله:

وأبي الذي حصد الرقاب بسيفه	في كل يوم تصادم ونطاح
ردت الشمس يحدث ضوءها	صبحا على بعد من الإصباح

وأمثال هذا كثير في شعره والغريب إنني ما وجدت للشريف شعرا
يذكر فيه فذك، ولا يمرها بخياله في المواضع التي يتناسب ذكرها معها،
وهي الحادثة الأولى من نوعها التي أذكت نار الحماس في قلوب

الطالبين، والشق الأول في بناء الهيكل الإسلامي، كما أنه لم يمس الشيخين بسوء، ولم يتناول على كرامتهما ولا فرضهما ممن مالا أو مائلا على البيت الهاشمي، على كثرة ما يسمعون من مظالم آبائه واهتمام حقوقهم. بل كان يفتخر بالمشاركة في مجدهما، وقد مر ذلك. فهل كان الشريف يرى أن الإمامة أمر والخلافة شأن آخر، وقد يقوم بأعبائهما شخصان فهذا إمام للناس من الله تعالى، وذلك خليفة من الناس لرسول الله (ﷺ) ويجتمعان في زمان واحد وقد يكونان لشخص واحد، فهو الخليفة والإمام الآلهي؟ وهل هذا رأي في حل المشكلة الإسلامية التي ما زالت ولن تزال يفتن بها المسلمون وتنشق عليها عصاهم...؟ وهل كان في استفتاء الشيخين علياً في بعض ما يرد عليهما من معضلات المسائل الدينية ما يؤيد هذه النظرية؟ وهل كان كل واحد من هؤلاء الخلفاء يعتقد في صاحبه ما ذكرناه؟ وهل كان اختلاف المذاهب، حنفي، مالكي، حنبلي، شافعي، جعفري، إلا من جهة اختلاف الرأي والرواية مع الشك والجزم بما يراه وترويه الفئة الأخرى؟ وهل يمكننا أن نتخذ هذا المبدأ دستوراً وأداة نوحدها بها شتات المسلمين ونجمع عليها عناصرهم عند أشد ما يحتاجون إلى الوفاق، وأنكى ما يسامون به من الافتراق؟ للجواب على ذلك موضع آخر...

إلا أن الشريف لا يدع للأمويين عظماً إلا هشمه ولا ذماً إلا ألصقه، وإذا ذكرهم مزج الدمع بالدم، والأسى بالأسف، فهو ألب عليهم من الناصية إلى الأخص، وهم ثاره من الألف إلى الياء. وليس كذلك العباسيون فهو يتراوح في ذمهم ومدحهم، على نسبة إيفاء الحق

واستيفائه وقضائه واقتضائه بشأنهم والشأن الديني بالدرجة الثانية، من العتب والتحدي والمطاولة. وإنما المسألة مسألة الدم المسفوك والعرض المهتك، والسلب والاستباحة والمدافعة والمناكفة في الحكم والسلطان، والغيرة للرحم والعصية للأباء والأقوام.

وفي شعر الشريف، في مدائح بعض الخلفاء العباسيين ما أشرب روحا دينية، ووضع فيه الخليفة موضعا مقدسا واستوفى فيه الحمد والمدح، إلى الحد الذي يعتقده الإمامية في أئمتهم، وما هو من المطبوع بتلك اللهجة التي لا يقابل بها إلا المتبوع الشرعي، والعميد في الخلافة. ولعل الشريف في ذلك كان قد طبق نظرية انفصال الإمامة عن الخلافة المشروعة، والسلطة الدينية عن السلطة الزمنية، أو راعى فيه ما يعتقده الجماهير العامة، أو هو من قبيل مدائحه التي يصف الشريف فيها نفسه بقوله:

أهذب في مدح الرجال خواطري فاصدق في حسن المعنى وأكذب
وما المدح إلا في النبي وآله يرأى وبعض القول ما يتجنب
فمن ذلك قوله في الطائع:

هيهات طاعتك النجاة وحسبك التقوى وشرك الفضل الأقسام
ومن ذلك قوله:

لله ثم لك المحل الأعظم وإليك ينتصب العلاء الأقدم
ولك التراث من النبي محمد والبيت والحجر العظيم وزمزم
ومن ذلك قوله:

فلأنت أولى بالإمامة والهدى وأنبأ عن ولد النبي المرسل

وقد جمع الشريف من أصول العقيدة الشيعية: التوحيد، العدل، النبوة والأمامة في قوله:

أصبحت لا أرجو ولا أبتغي فضلا ولي فضل هو الفضل
جدي نسبي وإمامي أبي ورايتي التوحيد والنعدل

ويحدثنا الشريف عن اعتقاده في كتاب «حقائق التأويل» أنه لم يكن يتطامن للعقيدة تقليدا، ويتخذها اتباعا، وأنه ربما مر عليه الزمن الطويل وهو شاك تتضارب لديه الحجج وتتنافى عنده الأدلة، وقد يجزم فيعدل حتى تستقر في موضعها من نفسه عقيدته التي لا شك عنده فيها ولا تردد قال:

(ولا عيب على جامع مثل هذا الكتاب البعيد الأطراف المحتاج إلى فضلات من مدد الزمان، أن تقرر فيه مذاهب كانت مترجمة، وتطمئن آراء كانت قلقة على حسب تأثير الزمان الأطول في جلاء الشبهة وحل عقود الأمر المشتبهة، واستدراك فوائت الأدلة واستثارة كوامن الرأي والرواية. ومن ذلك ما يمر بقارئ صدور كتابنا هذا من كلامنا الذي يدل على ميلنا إلى القول بالارجاء، ثم ما يمضي به في أوساطه وأتباجه من الكلام الدال على تحقيق القول بالوعيد، قاطعين به وعاقدين عليه. وإنما كان السبب في تباين هذين القولين سالفا وخالفا، وسابقا ولاحقا تفرع شبه وشكوك ما زال الزمن بماطلته يرجئ حسيها ويسهل وعورها، حتى أسرع حابسها وانقاد متعاسها بلطف الله وتوفيقه ومعونته وتسديده). انتهى.

مزاياه وغرائزه

توفي الشريف وهو ابن سبع وأربعين، توفي وهو على أبواب الكهولة لم توهن منته الشيخوخة، ولا أطفأ لهبه الهرم، وانطوى عمره وهو في أدوار الشباب. وللشباب نزعات وللشباب ميول ومجازفات. فكانت تلك الروح تترقق في سائر مظاهره النفسية. والغرائز والملكات لها اتجاهات وانفعالات مختلفة على نسبة اختلاف أدوار الحياة في المضاء والأنفاذ، فإن الأخلاق تهرم بهرم الأبدان، فالحفاظ العجوز والشهامة والأنفة والوفاء والأبء إذا هرمن لا يشبهن أنفسهن، وهن في دور الشيبية. فلقد كان الشريف شابا في جميع مزاياه وغرائزه. وفيما تقرأه من صور حياته في هذه الترجمة تعرف جميع مزاياه وملكاته، وما نشته في هذا الفصل أشبه ما يكون بتلخيص لذلك التفصيل.

لقد كان الشريف أيبا أنفا غيورا، ذا عفاف وحفاظ طموحا للمعالي، ففي ديوان أخيه المرتضى من شعره قوله:

لَقَدْ كُنْتُ لِبَغِي رَتْبَةٍ بَعْدَ رُتْبَةٍ فَاتَّفَقْنَا مِنْ لِيٍّ نَفُوزٍ بِهَا وَحَدِي
حِفْظًا عَلَى الثَّرْبِيِّ الرُّومِ وَغَيْرِهِ عَلَى الْحَسَنِ الدَّانِيِّ وَبِقِيَا عَلَى الْمَجْدِ

لم يدنس مآثم ولم يكن زهده في الدنيا ونكفه عن الترف والترهل من قبيل الرهبة والتبتل، وإنما كان يعمد لذلك لينطلق من ميعان الحضارة ويطبع نفسه على الجلد ويحملها على القناعة بشظف العيش، حتى تهون عليه موارد المهالك وأعنات الخطوب. وكان يكره الخلاعة والخلعاء والمجانين، ولا تطاوعه نفسه على التزلف، ويسمت سمت الماجدين السراة وخله الوفاء. وعزة النفس أظهر مزاياء الشريف وأقواها في نفسه، أما شواهد عزة نفسه فلا تحصيها هذه الوريقات،

فلقد انطبع على هذه الخلة منذ كان غلاما ويافعا حتى أوردته المنون قعر
الرجم، فقد كان يترفع عن الصلات له ولخاصته مهما كان المانع، حتى
ولو كان أباه ولا يقبلها ولو ملك بها ناصية اليسار، ووقائعه وقضاياه في
ذلك معروفة مشهورة. وهو وفي مهما كلفه الأمر من تضحية. يلبي
داعي الوفاء للوفاء، فلا يبالي في سبيل ذلك بطشة الجبار ولا سوط
المتأمر ولا يتعمده للخطوة ونيل الأمانى، فقد توجع لخلع (الطائع) وهو
طريد (بهاء الدولة) ومفجوع غضبه في المستهلة بقوله:

إن كنن ذلك الطود خرز فبعد ما استغلى طويلا

ثم يرثيه يوم توفى في الإعتقال بعد جدع أنفه وأذنيه بقصيدته التي
مطلعها:

ما بغد يومك ما يسلو به العنلى ومثل يومك لم يخطر على بالى

وليس من أغراض الشريف في توجعه ورثائه أن يستشير نخوة
(القادر بالله) ليوفى له حقه، كما وفاه له الطائع.

وإن كانت مدائحه للطائع أغلبها مما ينسجم في مدح (القادر بالله)
فإن القادر بالله من ذلك المعشر الذي يقول فيهم الشريف في مدحه
للطائع:

من معشر زغبوا القلا وأنوا عن الكرم النزولا

كرموا فروعا بعننا طلبوا وقد عجموا اصولا

فهي مما لا يتبرم به القادر بالله أضف إلى ذلك أن القادر لم يكن
مخاصما للطائع ولا مدافعا له، ولا يعد تسليم الأمر إليه بأمر بهاء الدولة
معروفا في حقه. فإن الخلافة حقهم وبهاء الدولة مسيطر باغ قد اغتصب
منهم سلطان الخلافة، وترك لهم شكلها وأسماءها. وأيضا فليس مرثي
الشريف له ولغيره شواهد على الوفاء فان الشاعر في رثائه إذا كان

مندفعا فيه عن شعور نفسي ربما يكون لخبية أمانيه في فقد من عقد عليه ادراكها وقد يكون لشعور بعظم النكبة على العموم، وقد يكون لتأثر من خصوصيات المصاب وفضاعته، أو لعاطفة أخرى لا لمحض الوفاء. فلا أرى أن الرثاء من مظاهر الوفاء إلا أنه قد يكون ولكن هذا لا يظن بحق الشريف مع الطائع، فان للشريف عليه لوعة حارة مطردة في جميع شعره من حين وقوع النكبة عليه سنة ٣٨١هـ إلى حين وفاته في الاعتقال سنة ٣٩٣هـ، وكما يقول (الدكتور زكي) لا ينظمه رجل متظرف ولا متكلف وإنما ينظمها رجل محزون.

وبعد فلا شك أن شعر الشريف في حق الطائع من الوفاء ومن قبيل التضحية في سبيله لأنه موقف يعرض صاحبه للخطر من المسيطرين الذين فتكوا بالطائع، فما يدريك أن بهاء الدولة أراد أن يشعر القادر بالله عن طريق شعر الشريف دهاء في السياسة أن البأس الذي فتك بالطائع لا يزال وهو لك (بالمرصاد) ولا ينجيك منه إلا الإخلاص.

وكان مدح الشريف للطائع استيفاء للتعمية وصيانة للسر الذي أمن به الشريف من الخطر، وأحسن ما يعرف به وفاء الشريف ما تمناه لنفسه في قصيدته التي يجيب بها الصابي، وقد تقدم بعض آياتها، فيقول:

ولو أن لي يوما على الدهر امرأة	وكانت لي العوى على الحدثنان
خلعت على عطفك برد شيبتي إلى إخره
وحملت ثقل الشيب عنك مفارقي إلى إخره
ونابت طويلا عنك في كل عارض إلى إخره
على أنه ما تنفل من كان دونه	حميم يرامي عن يد ولساني
حفيظ إذا ما ضيع المرء قومه	وفي إذا ما خون العضدان

علمه وأدبه وشعره

إن من الذين ترجموا الشريف من كان في أعلام الكتاب كأبن أبي الحديد، والخطيب البغدادي (الذي يتحفظ في كتابه في إيراد النعوت والمزايا)، والثعالبي في كتابه "تيمية الدهر". وفيما كبه هؤلاء عنه كفاية، والمترجمون له غيرهم كثيرون، وهنا نأتي على خلاصة ما أوردوه:

(كان الشريف عالما، أدبيا، شاعرا، مقلقا، فصيح النظم ضخم الألفاظ، متصرفا في فنون القريض. إن قصد الرقة في النسيب أتى بالعجب العجائب، وإن أراد الفخامة وجزالة الألفاظ في المدح وغيره أتى بما لا يشق له غبار، وإن قصد المراثي جاء سابقا والشعراء منقطع أنفاسها. إبتدأ يقول الشعر بعد أن جاوز العشر سنين بقليل. وروى عن (ابن محفوظ) شهادة جماعة من أهل العلم والأدب بأنه أشعر قريش. وضم ابن محفوظ رأيه إليهم فقال هذا صحيح، ويشهد لذلك شعره العالي القدح، الممتع عن القدح الذي يجمع إلى السلاسة متانة وإلى السهولة رصانة، ويشتمل على معان يقرب جناها ويعد مداها، وكان مع هذا مترسلا ذا كتابة قوية وأدب ظاهر، وفضل باهر وحظ من جميع المحاسن وافر). (انتهى)

ولقد كان للشريف مطامع وأهواء في الملك والسياسة وهو ممن يقال فيهم أنه لا ينام إلا على سر مبيت، أو غرض دفين، وذلك مما يشحذ القريحة ويكدها كأداة يتصل فيها بأحلامه الجميلة والأدباء الذين يتلابسون مع الملوك ويتصلون فيها اتصال استغلال واستثمار في جهات

(٥٨) الشرف الرضي علمه وأدبه وشعره

الحكم والسلطان يتسع خيالهم وتخلق لهم تلك الظروف أدبا ساميا عليه رونق من ابهة التاج وحشمة الملوك. فكان الشريف يتعمد فيما ينشأه من نظم ونثر، أن يحشوه بأوابد الألفاظ وشواردها، ويعجم في الاشتقاق ويسبك ذلك في قوالب البداوة والغرابة.

ويستطرد بهذه المناسبة ذكر رأي في تدوين اللغة العربية طالما تردد في البال - لقد فات على أرياب معاجم اللغة الذين قيدوا شواردها وقيدوا أوابدها أخذا من الحفظه والنقلة أو من العرب مباشرة، أن يشيروا في معاجمهم إلى اللهجات واللغات العربية المختلفة فينسبوا كل لفظة إلى القطر أو الشعب التي تستعمل فيه، وينسقوا معاجمهم إلى أبواب وفصول، يختص كل واحد منها بالشعب أو القطر الذي تكون تلك الألفاظ مختصة به ومنسوبة إليه، ثم يجمعوا للألفاظ الفاشية المستعملة عند سائر الشعوب العربية في فصل مستقل.

وإن اشير إلى ذكر شيء من ذلك في كتب التفسير، كقولهم إن ذلك نزل (على لغة كذا) وفي كتب اللغة كقولهم في المأثور (ليس من أمبر أمصيام في أمسفر) أنه وارد على لغة حمير، وغير ذلك مما نجده مما نجده مبثوثا في زوايا معاجم اللغة إلا إن ذلك في الحقيقة لا يفي بالمرام. قد لا يعترني ريب إن قلت أن الأدباء الذين حفظوا العربية الفصحى من تلك المعاجم، لو يكتب فصل من نثرهم أو قصيدة من شعرهم لتقرأ على أي عربي كان فإنه لا يستطيع أن يفقه ما اشتملت عليه من الألفاظ الغربية ذلك لأن العربية الفصحاء تختلف وتباين بلهجاتها كما تختلف اللغة الدارجة. فالذين أخذوا العربية من هذه المعاجم كالشريف لا

يستطيعون أن يفهموا عربيا إذا خاطبوه بها، وهذا نقص في فقه لغتنا كان الواجب تداركه ولكنه ضاع، وضاع إلى الأبد. لقد ذاع صيت الشريف في الشعر، واهتم الأدباء في جمعه وشرحه. قيل ولم يكن اشتهاره بالشعر إلا لكونه أجاد به تمام الإجابة، وإلا فهو في العلم على جانب عظيم. وقد أنفذ الصاحب إلى بغداد من ينسخ له ديوانه، وكتب إليه بذلك سنة ٣٨٥هـ فمدحه الشريف بقصيدة منها:

بيني وبينك جرمتان تلاقيا نثري الذي بك يقتدي وقصيدي
إن أهد أشعاري إليك فقهه كالمسرد أعرضه على داود

ويظهر من هذا أن له أسلوبا في النثر والكتابة، هو من طراز ما يحسنه الصاحب منها. وكيف يشك في عد الشريف في زمرة الكتاب وأمراء البيان وهذا تفسيره "حقائق التأويل" الذي يصوغ جملة وفصوله بذلك الأسلوب الفخم البليغ، ويظهر فيه مقدرة فنية في النثر، بها يستطيع أن يوافينا ببيان المسائل العلمية بأسلوب إنشائي بليغ، الأمر الذي لا يستطيعه إلا من بلغ الغاية في البلاغة. وقد راق ابن جنبي. مرثيته لأبي طاهر إبراهيم ابن ناصر الدولة التي مطلعها:

لقى السلاح ربيعة ابن نزار أردى الردى بقربك المغوار

فشرحها وفسر ألفاظها ومدحه الشريف لذلك. وفي مكتبتنا وريقات بالية أظنها من ذلك الشرح. ولقد شغفت تقيّة بنت سيف الدولة بشعر الرضي وافتنت به، وكانت من أفاضل نساء قومها. فالتهمت انتساخ نسخة من ديوانه على التمام فنسخ لها وأرسل إليها من العراق.

(٦٠) الشرف الرضي علمه وأدبه وشعره

ولم يشتهر الشريف في النثر اشتهاؤه في الشعر ولعله لعدم إكثاره فيه، ولم يترام إلينا من نثره غير ما نقرأه في أثناء مؤلفاته التي بأيدينا، وقد روى له في "الدرجات الرفيعة" عدة رسائل ليست هي من أسلوب ما قرأناه من المؤلفات في البلاغة.

والشريف إذا نعى ورثى أبدع وأغرب، فإذا عضت النكبة حسبه أو نسبه كان كمستودع غاز مسته النار، فلهذا كانت مراثيه في الحسين (عليه السلام) جده وأمامه، وشهيد أعداء أسرته، ومن لا يخشى عادية الخلفاء العباسيين ولا ملوك عصره أن يقول فيه ما شاء لسانه وخياله، غاية في الإجادة ونهاية في استدراج العاطفة، ومراثيه فيه (عليه السلام) كثيرة ولا يسالم الشريف أحدا من آل حرب إلا ابن عبد العزيز، كوفاء له على صنيعه، وشكر على تكرمه ولا يبالي أن يخرج مدحه بدم سلفه وولاته بعداء آبائه، ولا يستوفي الشكر له بالبكاء عليه لأنه من بني أمية فيقول:

يا ابن عبد العزيز لو بكت العين	فتسى من أمية لبكيتك
غير أنني أقول لك قد طببت	وإن لم يطب ولم يذك بيتك
أنت نزهتنا عن السب والذمتم	فلو أمكن الجزاء جزيتك
دبر سمعان لا غدتك الفوادي	خير ميت من آل مروان ميتك
وعجيب أنني قلبت بني مروان	طرا واتي ما قلبيتك

وقد روي عن الصادق (عليه السلام) أنه قال: (كان العبد الصالح أبو

حفص يهدي إلينا الدراهم والدنانير في رفاق من العسل خوفا من أهل

بيته).

العلم في القرون الإسلامية الأولى

إن القرون الإسلامية الثلاثة الأولى يعني بالعلم فيها دراسة القرآن والنظر في معانيه، وشرح ألفاظه وتفاسيره وضبط قرآته وقصصه، ومعرفة ناسخه ومنسوخه، واستفادة الآراء والعقائد والأحكام الفقهية منه، والاحتجاج بأياته، إلى غير ذلك من العلوم القرآنية مما يخص الأدب والفلسفة والأحكام. ولقد كان هو محور العلوم الإسلامية ومناها. وإذا استعرضنا مؤلفات تلك القرون واستقرأناها، وجدنا تلك المؤلفات لأقطاب العلم المشاهير وما فيها من علوم تحول حول هذه النقطة وهي القرآن وتنشق من معدنها، فالقرآن وما ينشق منه من المعارف هو الكل في الكل. وقد يكون أول علم إسلامي أخذ من القرآن وانشق منه هو الفقه، ثم العقائد والبلاغة وعلوم والأدب والتاريخ. واختلف المفسرون في وضع تفاسيرهم لاختلاف وجهات نظرهم ومقدرتهم، في الأدب والفلسفة والأحكام، وتفاوت قرائحهم في هذه الفنون، أما الشعر والكتابة فهي لا تنسجم في تلك العلوم من حيث أن مصدرها لم يكن القرآن. والشريف عالم من ذلك القبيل أي من نوع يسمى عالما في تلك القرون، فقد استظهر علوم القرآن وبرع فيها، وأحاط بدقائقها واستنتج العقائد الدينية منها، ودرس الفقه الإسلامي كعلم من علوم القرآن ولم يتخصص فيه. ووضع تفسيره "حقائق التأويل" المؤلف الواسع الذي بلغ الغاية في الإجابة، والذي كان ضياع القسم الأغلب منه خسارة على الثقافة العربية عظمى، ويكفيها من معرفة مقدرة الشريف العلمية الواسعة ذلك الجزء الذي

ظفرنا به من أجزاء تفسيره، فمنه نعرف أن الشريف أمام في اللغة واسع الإطلاع. وجدلي كلامي بارع، وفقه ماهر وبصير في التاريخ ومشارك في الفلسفة وأستاذ في الأدب قدير. وسنعد لك مؤلفاته، وهي تبصرنا بدرجاته العلمية. أما فقاهاة الشريف فالحديث الآتي يوضح لنا بجلاء ماهيتها.

الفقه الإسلامي

لقد كان الفقه الإسلامي في تلك الحقبة من الزمن التي كان الشريف يتلقى علومه فيها، قد وضع عند فقهاء الجمهور على منهج علمي على حد سائر العلوم. وله مؤلفات مقررة تدرس وأساتذة اختصاصيون. ولم يكن الفقه الجعفري الأمامي مثله، إنما أحكامه التي ينفرد بها ومسائله التي ينفصل فيها تحفظها فقهاؤه، وحملة الحديث عن أئمة (عليهم السلام) ككتاوى خاصة تختلف عن فتاوى الجمهور، ويتكتم فيها علماءه. وكان على روايات أولئك المحدثين ومجامعهم التي تسمى بالأصول، والتي جمعت وألف منها كتب ومنها استخرجت كتب الفروع يدور مدار ذلك الفقه. ثم من بعد ذلك وضع على منهج علمي ودرس كما يدرس فقه الجمهور، ورتبت أبوابه وتقسمت أقسامه ودونت قواعده المختصة به وغيرها.

والشريف درس الفقه الإسلامي على المنهج الذي وضعه علماء الجمهور وأساليبه المتبعة، ومؤلفاته المقررة. درس ذلك وبرع فيه كقانون للدولة الإسلامية لا بد من معرفته لمن يندمج في تشكيلات الدولة. وعرف الفقه الجعفري لأحكامه الشخصية وصلاته الألوية.

ولهذا نجد عند ذكر الكتب التي قرأها والأساتذة الذين قرأ عليهم كلها من كتب فقه الجمهور وعلى علمائه. وإذا تدبر القارئ ما ذكرنا، فلا يستغرب إذا لم يقف في تراجم الشريف، ولا في مؤلفاته التي يذكر فيها الكتب التي قرأها ومشايخه الذين تعلم عليهم ما هو ومن هو من كتب فقه الأمامي ومن فقهاؤه. فأنا كثيراً ما نقرأ في مؤلفاته قوله، وقد اختلف الفقهاء في ذلك. ولكنه لا يعقب ذلك إلا بمقالة أبي حنيفة والشافعي وغيرهما من فقهاء الجمهور. ولا يذكر فتوى فقهاء أهل البيت (عليهم السلام) نعم قد يقول ويروي عن أهل البيت كذا. ولو أردنا أن نورد ذلك لطلال بنا المقام، ولكن المتبع لا يفوته ذلك. وقد نقل الشيخ المرتضى في رسالة القطع محاورة فقهية بين الرضي وأخيه المرتضى، وقف فيها موقف المستجوب المعترض، وقد أخذها المرتضى عن الشهيدين في الذكرى والروضة، قال: (إنه سأل الرضي أخاه المرتضى، فقال: (إن الإجماع واقع على أن من صلى صلوات لا يعلم أحكامها فهي غير مجزية، والجهل بأعداد الركعات جهل بأحكامها فلا تكون مجزية. فأجاب المرتضى بجواز تغيير الحكم الشرعي بسبب الجهل، وإن كان الجاهل غير معذور). انتهى فهذه المحاورة تدلنا على فقاها الشريف ومعرفته بطرق الاستدلال والاجتهاد. وقال ابن خلكان إنه عرف من الفقه والفرائض طرفاً قوياً.

مؤلفات الشريف

لقد كان عمر الشريف خصبا بإنتاجه العلمي والأدبي، ويؤدنا الحساب الدقيق لسني عمره بعد شطب المدد التي أنفقها في مزاولة وظائفه، وفي إلقاء دروسه ومحاضراته في مدرسته (دار العلم) وفي محاولاته السياسية، ومجاملاته للخلفاء والملوك، وفي قرضه للشعر وشطب سني الطفولة والمراهقة إلى حد الاستكمال في طاقة التأليف، من قائمة سني عمره يؤدنا ذلك أن إنتاجه لتلك المؤلفات الناضجة التي تحتاج إلى مادة علمية غزيرة، واطلاع واسع كان على حد الإعجاز، ولا بد له من فرط ذكاء وجودة في القريحة وملكة للحفظ والاختزان. وكل مؤلفات الشريف تتشابه في قوة المنطق وأساليب البيان وهي:

١- "نهج البلاغة":

وهو ما جمع فيه الشريف من خطب وحكم ورسائل أمير المؤمنين أبي الحسن علي ابن أبي طالب عليه السلام، ذكره الشريف في تفسيره حقائق التأويل، وفي "المجازات النبوية" مكررا، وفي صفحة (١٦٧) من حقائق التأويل ما يدل على أنه قام بجمعه قبل هذا الكتاب. ونحيل القارئ الكريم إلى ما كتبه عنه شيخنا حجة الإسلام الهادي آل كاشف الغطاء دام ظله في مؤلفه "مستدرک نهج البلاغة" فقد وفي المقام حقه.

٢- "خصائص الأئمة":

ذكره الشريف في صدر نهج البلاغة وقال عنه: إنه وقع موقع الإعجاب من جماعة من الأصدقاء. وذكره كشف الظنون أثناء كلامه

عن "نهج البلاغة". ونقل منه ابن طاووس الحسني الداودي في كتابه المسمى بـ"الطرف" وهو من مصادر "بحار الأنوار" للمجلسي. ولم يذكره ابن خلكان. وفي مكتبتنا نسخة خطية حديثة الخط كتب عليها كتاب "الخصائص" للشرف الرضي وذكر مؤلفها في الديباجة أنها تشتمل على خصائص أخبار الأئمة الأثني عشر (عليه السلام) إلا أنني أشك في صدق النسبة، فإن من مارس مؤلفات الشريف يجزم بأنها ليست من ذلك الأسلوب الذي يجبره قلم الشريف.

٣- كتاب "مجاز القرآن":

وقد سماه الشريف "تلخيص البيان" قال عنه ابن خلكان: وصنف كتابا في مجاز القرآن نادرا في بابه. وذكر صاحب "كشف الظنون" تحت عنوان (المجاز) للسيد الرضي ولم يزد على ذلك وذكره مؤلفه صفحة (٢، ٣، ٩، ١٤٥) في كتابه "المجازات النبوية" وفي حاشية له على "حقائق التأويل" وقال عنه وعن "المجازات النبوية" صفحة (٣) منه أنهما عرانا لم اسبق إلى قرع بابهما.

٤- "مجازات الآثار النبوية":

من مشاهير مؤلفاته وأمتعها طبع في بغداد سنة ١٣٢٨هـ وقد وقفت منه على نسخة في مكتبة آل الصدر، والنسخة المطبوعة كثيرة الأغلاط وحذا لو يجدد طبعها.

٥- كتاب "الزيادات" في شعر أبي تمام.

٦- كتاب "أخبار قضاة بغداد".

٧- كتاب "تعليق خلاف الفقهاء".

٨- كتاب ما دار بينه وبين أبي إسحاق من الرسائل والشعر.

٩- كتاب تعليقه على "الإيضاح" لأبي علي.

١٠- كتاب "مختار شعر أبي إسحاق الصائبي".

١١- كتاب منتخب شعر ابن الحجاج سماه "الحسن من شعر الحسين".

١٢- كتاب رسائله ثلاث مجلدات.

ذكر في الدرجات الرفيعة بعضها. ونشرت مجلة العرفان بعضها عن
الدرجات الرفيعة.

١٣- كتاب سيرة والده الطاهر.

ألفه في حياة والده وقبل وفاته بإحدى وعشرين سنة ويقول
الشريف في قصيدة مدح بها أباه وذكر هذه السيرة:

في سيرة عزاء تستضوي بها الذُّنيا ويلبمها الزمان الأطوال

ملئت بفضلك فلولسي مكثرتُ ما شاع عنها والعهو مقليل

١٤- كتاب "حقائق التأويل".

لابد لنا قبل كل شيء من الاعتراف باليد البيضاء التي أسداها
العالم المتبحر، والورع المتبتل الشيخ حسين النوري المحدث الشهير
صاحب المؤلفات الرائعة التي طبع أكثرها في المطابع الإيرانية، العلم في
هذا الباب. لقد كان نور الله ضريحه، يجمع إلى فضله الرواية والدراية
والعلم الجسم، معرفة واسعة بالمؤلفات وأربابها، وكان من صرعى
الكتب، فعلى علو شأنه وتقدم سنه كان يضحى في سبيل جمع الكتب
النفيس والنفيس، ويصبر لمشايق الأسفار البعيدة لذلك. وتروى عنه في
هذا الشأن روايات غريبة. وقد ملك مكتبة مهمة تشتمل على أمهات
الأسفار النادرة القيمة، وهو الذي حمل نسخة هذا الكتاب إلى النجف
الأشرف في إحدى رحلاته إلى إيران وأشاعها في الأوساط العلمية

وأبرزها للملا. وقد نسخ نسخته على النسخة التي في المكتبة الرضوية، وبعد أن اشتهرت النسخة وتهافت على الاستساخ منها عشاق العلم، علم أن في مكتبة آل القزويني إحدى مكتبات النجف نسخة منه، ولكنها لا تضاهي تلك النسخة في الصحة. وعلى النسخة التي أتى بها العلامة النوري نسخت النسخة التي في مكتبتنا، وعليها طبعها متدى النشر. وقد بذلنا جهودا في تصحيحها، فان نسخة الشيخ النوري التي هي بخطه نسخها باستعجال وبالحظ الفارسي، أما نسخة المكتبة الرضوية، فقد ذكر عنها مؤلف فهرست المكتبة الرضوية وهو الفهرست الذي ألف وطبع بارادة ملكية من عاهل إيران البهلوي سنة ١٣٤٥هـ في زمن تولي محمد وليخان الأسدي لسدانة المرقد الرضوي ما تعريه:

ومن جملة مؤلفات (الرضي) كتاب "حقائق التأويل" الذي قيل إنه يتعذر أن يؤلف مثله، ونسخته الشريفة التي حوتها المكتبة المباركة قديمة جدا، وقد نسخت على نسخة عليها خط المؤلف ولكنها غير تامة الأجزاء، والذي يوجد هو الجزء الخامس ليس غير والذي ابتداء مؤلفه به من أول سورة آل عمران، وقال بعد البسملة (السورة التي يذكر فيها آل عمران وانتهى به إلى أواسط سورة النساء إلى الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾. وتاريخ تأليف الكتاب سنة ٤٠٢هـ منقول من خط مؤلفه وتاريخ كتابة النسخة (٢١) شهر رجب سنة ٥٣٣هـ وصفحاتها تشتمل على (١٥) سطر وعدد أوراقه ٢٠١ وهي وقف، وقفها ابن خانون سنة ١٠٤٧هـ انتهى.

فقد بقية الأجزاء:

بعد الفحص والتنقيب في المظان التي يذكر فيها الكتاب، يظهر أن أجزاء الكتاب ما عدا الجزء الخامس منها فقدت منذ زمن بعيد، ولم يقف عليها رجال العلم والأدب. قال السيد العلامة الحسن آل صدر الدين في كتابه "تأسيس الشيعة": «منها وهو (مصنفات الرضي) كتابه المترجم "بحقائق التنزيل ودقائق التأويل" كشف فيه عن غرائب القرآن وعجائبه، وخفاياه وغوامضه، بما لم يسبقه إليه أحد. وهو مع ذلك في كبر تفسير التبيان رأيت منه الجزء الخامس... إلى أن قال وذكر له السيد المدني في الدرجات الرفيعة كتاب تفسير القرآن غير "حقائق التأويل" وفيه نظر»، انتهى.

وقال العلامة النوري في فوائد مستدركه: «وأما التفسير المسمى بـ"حقائق التأويل" فهو أكبر من التبيان وأحسن وأفصح». وقال أبو الحسن العمري: «شاهدت مجلدة من تفسير منسوب إليه (الرضي) مليح حسن يكون بالقياس في كبر تفسير أبي جعفر الطبري (وفي نسخة) الطوسي». وقد اتفق أرباب الفضل الوسع، في التنقيب والفحص عنه في مكتبات الهند وإيران وبلاد العرب فلم يقفوا إلا على الجزء الخامس من هذا التفسير.

لطراء التفسير في كتب اللطم والأطب :

أطرى المؤلف نفسه هذا التفسير صفحة (١٧) من المطبوع فليراجع. ونقل الخطيب في تاريخه عن أحمد بن عمر بن روح قال: «وصنف (الرضي) كتابا في معاني القرآن يتعذر وجود مثله». ونقل ابن خلكان عن ابن جنبي قال: «وصنف كتاب في معاني القرآن الكريم يتعذر

وجود مثله، دل على توسعه في علم النحو واللغة)). وقال صاحب عمدة الطالب: ((وله في التصانيف كتاب "المتشابه في القرآن"))، ومراده به هذا الكتاب فان الشريف المؤلف ذكر في صفحة(١٩٦) أنه لا يتعرض غير المتشابه في كتابه. وذكر ابن شهر آشوب في معالم العلماء: أن له "حقائق التأويل في متشابه التنزيل"، وان له كتاب "معاني القرآن" يتعذر وجود مثله. وقال المؤلف في كتاب "المجازات النبوية" صفحة(٣٢٦): ((ومجال كتابنا هذا أضيق من أن نسير في أقطار الكلام على هذا الخبر أكثر من هذا المسير، وقد استقصينا ذلك في كتاب "حقائق التأويل"))، وقال في صفحة(١٧٥) وقد بسطنا الكلام على ذلك في باب مفرد من جملة كتابنا الكبير في "متشابه القرآن" فمن أراد استيعاب معانيه ومعرفة الخلاف فيه فليقصد مطالعته. وقال صفحة(٨) وقد استقصيت ذلك في كتابي الكبير الموسوم "بحقائق التأويل".

هل للشريف ثلاثة تفسير أو تفسير واحد؟

قال النجاشي: وله كتب منها "حقائق التنزيل" وعد باقي مؤلفاته. قال في "روضات الجنات": وله أيضا تفسيران آخران غير تفسيره الكبير الذي هو على كبر التبيان. ذكرهما النجاشي وغيره أحدهما، "حقائق التنزيل" والآخر "حقائق التأويل". وقال الشريف في كتاب "مجازات الحديث": وقد استقصيت ذلك في كتابي الكبير الموسوم بـ"حقائق التأويل". وقال في "المجازات" أيضا: ((وقد بسطنا الكلام على ذلك في باب مفرد من جملة كتابنا الكبير "في متشابه القرآن"))،

أقول: ولا ريب أنه ليس للشريف إلا تفسير واحد هو "حقائق التنزيل" والذي بالأيدي منه هو الجزء الخامس فان ما ذكره في المجازات من نعتة بالكبير وانه في متشابه القرآن ينطبق عليه.

فانه "في متشابه القرآن"، كما ذكر ذلك المؤلف وهو كبير أيضا. فقد أشار المؤلف إلى تباعد أطرافه واتساع أبحاثه نعم يبقى عندنا ما ذكره النجاشي. والظاهر أنه اعتمد اختلاف النسخ في المأمّن التي أخذ عنها وهي مختلفة على أنه يمكن أن يكون للشريف تفسيران، أحدهما "حقائق التنزيل"، والآخر "حقائق التأويل". الذي يختص بخصوص المتشابه. ولكن الذي يبعد ذلك أنه إذا استثنينا النجاشي، فقل من يعد له تفسيران وانما يقتصر على واحد فراجع.

١٥- ديوان شعره، طبع مرتين أجودهما الذي طبع في بيروت سنة ١٣٠٧هـ وقد اخذ عن نسخة خطية كانت في مكتبة الشيخ عبد الله نعمة في مجلدين.

قال ابن خلكان: «أن أبا حكيم الخبري أحسن من جمع ديوان الشريف. أما الذي نعتده في جمع الديوان أن أول من جمعه الشريف نفسه، ولكن على غير تبويب ولا ترتيب. ثم ألحقت به الزيادات التي أنشأت بعد جمعه، وهذه هي القصائد التي نحتها معنونة في الديوان المطبوع بالزيادات. ثم هذا المجموع بوب إلى أبواب الشعر من المدح والثناء وغير ذلك، ثم رتب على حروف الهجاء على كيفيتين أحدهما ترتيب كل واحد من الأبواب على حروف الهجاء، والأخرى ترتيب جعلته على حروف الهجاء. ولا نعلم أن أبا حكيم كيف كان ترتيبه

ترجمة الشرف الرضي (٧١)

وتبويه. وقد أجهدتني معرفة أبي حكيم هذا. وأظنه عبد الله بن إبراهيم بن عبد الله».

قال السبكي في طبقاته: «أبو حكيم الخبزي نسبة إلى خبزي بفتح الخاء المعجمة، وسكون الباء المنقوطة بواحدة في آخرها الراء المهملة وهي ناحية بشيراز ... إلى أن قال: وكان يعرف العربية ويكتب الخط الحسن ويضبط الصحيح (أي أنه وراق) وشرح الحماسة وعدة دواوين كالبحتري والمتنبي والرضي الموسوي... إلى آخره».

وما ذكره وان كان لا ينطبق على ما ذكره ابن خلكان ومن تبعه لأن الشرح غير الترتيب ولأن المذكور بالـ(ب) والذي ذكرها ابن خلكان بالـ(ي) لكن الفحص والتتبع ما أوصلنا لغير هذا ولم نجد فيما لدينا من معاجم التراجم غيره وهو أقرب ما يكون لما ذكره ابن خلكان. وترجمه في "هغية الوعاة". وذكر شرحه للحماسة ولديوان البحتري وعدة دواوين ولم يذكر ديوان الشريف.

أساتذته واستاذيته

روى ابن خلكان عن بعض مجاميع ابن جنبي ان الشريف أحضر إلى السيرافي وهو طفل لم يبلغ عمره عشر سنين، فلقنه النحو وذكر أنه تلقن القرآن، بعد أن دخل السن فحفظه في مدة يسيرة ونقل عن الدرجات الرفيعة أنه قدم هو وأخوه المرتضى وهما طفلان، على ابن نباتة صاحب الخطب. وحديث قراءتهما على أبي عبد الله محمد بن محمد بن النعمان المفيد (رحمته) معروف وخصيرا: أن المفيد رأى في منامه ليلا أن الزهراء (عليها السلام) دخلت وهو في مسجده بالكرخ، ومعها

(٧٢)أسأذته واستأذته

ولداها الحسن والحسين عليهما السلام، وهما صغيران، وقالت: علمهما الفقه، فاتبه المفيد ولنامه أثر في نفسه ولما أسفر الصبح من غداة تلك الليلة دخلت عليه بمسجده فاطمة بنت الناصر، وحولها جواربها وبين يديها ابناها (علي ومحمد) فقام إليهما وسلم عليهما. فقالت له: أيها الشيخ هذان ولداي قد أحضرتكما إليك لتعلمهما الفقه. فاستعبر وقص عليها الرؤيا وتولى تعليمهما وبرعا فيما تلمذا به.

وقرأ الشريف على أبي الحسن عبد الجبار. ذكر ذلك في كتابه الموسوم بـ"مجازات الحديث"، قال: «ومما علقته من قاضي القضاة أبي الحسن عبد الجبار ابن أحمد، عند بلوغي في القراءة عليه إلى الكلام في الرواية... إلى آخر ما ذكر». ويظهر من كتابه "مجازات الحديث" أن من مشايخه الشيخ أبو الفتح عثمان ابن جني في النحو، وأبو الحسن الربيعي وأبو القاسم عيسى بن علي بن عيس وأبو عبيد الله محمد بن عمران المرزباني في الحديث، والقاضي عبد الجبار البغدادي في الأصول، وأبو بكر محمد بن موسى الخوارزمي في الفقه، وأبو حفص عمر بن إبراهيم بن أحمد المقرئ الكتاني في القراءة، وقد قرأ "مختصر أبي الحسن الكرخي" على القاضي أبي محمد عبد الله بن محمد الأسدي. ذكر ذلك الشريف في تفسير «ولا تقرّبوا الصلاة... الآية» وقرأ "مختصر أبي جعفر الطحاوي" على أبي بكر محمد بن موسى الخوارزمي.

ويقول الشريف في صفحة (٨٥ - ٨٦) من تفسيره: «وقد كنت علقت عن شيخنا أبي بكر محمد بن موسى الخوارزمي عند قراءتي عليه "مختصر أبي جعفر الطحاوي" وبلوغي إلى هذه المسألة من كتاب

ترجمة الشرف الرضي: (٧٣)

النكاح، الحجاج على الشافعي في جواز النكاح بشهادة رجل وامرأتين». ويقول في صفحة (٨٧): «وقال لي شيخنا أبو الحسن علي بن عيسى النحوي صاحب أبي علي الفارسي، وهذا الشيخ كنت بدأت بقراءة النحو عليه قبل شيخنا أبي الفتح عثمان بن جني، فقرأت عليه "مختصر الجرمي" وقطعة من كتاب "الإيضاح" لأبي علي الفارسي، ومقدمة أملاء علي كالمدخل إلى النحو، وقرأت عليه العروض لأبي إسحاق، والقوافي لأبي الحسن الأخفش»، وهو ممن لزم أبا علي السنين الطويلة، واستكثر منه أو علت في النحو طبقته. ويقول: «بدأت بقراءة مختصر الجرمي، على أبي سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي رحمه الله في سنة ٣٤٤هـ». ثم انتقلت إلى أبي علي، انتهى.

ويقول في "المجازات النبوية" صفحة (٢٣٣) المطبوع ببغداد: «وفيما علقتة عن قاضي القضاة أبي الحسن عبد الجبار بن أحمد، فيما قرأته من أوائل كتابه المعروف بشرح الأصول الخمس» انتهى.

ويقول في صفحة (١١٤): «وذكر لي قاضي القضاة أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد، قرأته عليه ما قرأته من كتابه الموسم بـ "العمدة في أصول الفقه"».

ويقول في صفحة (٩٣): «وكنت سألت شيخنا أبا بكر بن موسى الخوارزمي (رحمته) عند انتهائي في القراءة عليه إلى هذه المسألة، من كتاب الطهارة عن المدخنة، إذ لا خلاف في الجمرة» انتهى.

ويقول صفحة (١٤): «وقال لي أبو حفص عمر بن إبراهيم الكتاني، صاحب ابن مجاهد وقد قرأت عليه بروايات كثيرة». وروى ابن

الجوزي أبو الفرج: «أن الشريف قرأ القرآن وهو شاب حديث، على أبي إسحاق إبراهيم أحمد بن محمد الطبري الفقيه المالكي. فقال له يوما أيها الشريف أين مقامك قال في دار أبي بباب الحول. فقال: مثلك لا يقيم بدار أبيه، قد نخلتكَ داري بالكرخ المعروفة بدار البركة. فامتنع الرضي من قبولها وقال له: لم أقبل من أبي قط شيئا، فقال: إن حقي عليك أعظم من حق أبيك عليك لأنني حفظتكَ كتاب الله فقبلها».

وإذا استطعنا أن نعرف أساتذة الشريف بأشخاصهم وأسمائهم من مؤلفاته، فانه لا سبيل لنا إلى معرفة تلامذته لا من مؤلفاته ولا من غيرها لأن أغلب من ترجم الشريف لم يوف المقام حقه في ذكر من أخذ منه، ومن أخذ عنه ولكننا نعلم أن له تلامذة جمعهم في مدرسته، دار العلم، تلك المؤسسة التي ارصد لها مخزنا اختزن فيه جميع حاجاتهم من ماله وكان يلقي عليهم فيها دروسه تباعا. وانه كان لها خازن خاص يدعى (أبي أحمد عبد السلام بن الحسين البصري) المشتهر بمعرفة علم تقويم البلدان، وصاحب المجمع العلمي الخاص به الذي ينعقد في كل يوم جمعة، كمجمع الشريف الأدبي. ويحدثنا الصابي بالحديث المعروف في شأن دخول المرتضى والرضي لمجلس الوزير أبي محمد المهلبى، وما جرى لهما فيه. أن الشريف كان يكفي تلاميذه الذين أسكنهم عمارته، دار العلم، مؤنة كل شيء وانه لما أحضرت هدية الوزير لهم ما احتاج واحد منهم لشيء سوى ما أخذه لغريم اشتري منه دهنًا للسراج، لأن الخازن كان غائبا. ولئلا يحجب قراء الشريف عن المخزن فقد دفع لكل منهم مفتاحا حتى لا يضطر إلى ما اضطر إليه صاحبهم، وكلما كان فلم يكن فان الشريف عالم

ويرغب أن يندمج في الأسرة العلمية ولكنه لم يتخذ نهج العلماء في الطابع والمظهر والوضع، ولم يكن إنشاؤه لمدرسة دار العلم ولا لحشره التلامذة فيها إلا إقرار حيثياته العلمية في النفوس، ولكن الغرض منها موقف، والغاية تبرر الغرض والتزعم وهذه الأمور من الوسائل والأسباب ويكفي منها الاسم والرسم.

صلاته بالأدباء

لقد خطب مودته الصاحب، وراثه الشريف، عندما وافاه نبأ وفاته سنة ٣٨٥ هـ بمستهله بقوله:

أكذا المنون تفتطر الأبطالاً أكذا الزمن يضعع الأجيالاً !!

وأمره مع الصابي مشهور، وقد مضى ويأتي ما يوضح أسرار صلته به، وله مودة وتلمذة على أبي الفتح ابن جني، وقد مدحه على تفسيره قصيدته التي رثى بها ناصر الدولة الحمداني، بقصيدة منها:

فدى لأبي الفتح الأفضل أنه يبر عليهم لن لرم وقال

إذا جرت الأدب جاء إلمها قريباً وجاء الطالبون لقالا

ولما توفى أبو الفتح تولى الصلاة عليه وراثه بقصيدة منها:

لتبكي أبا الفتح العيون بدمعها والسنانا من بعدها بالمناطق

شوقي إذا التفت الشقيق وأعرضت خلائق قومي جقبا عن خلائقي

ولم يتعرض فيها لقراءته عليه وتلمذته له.

ولما صحبه وصادقه مع ابن الحجاج الشاعر، وضع كتاباً سماه

”الحسن من شعر الحسين“ ولما توفى بالنيل وحمل نعشه إلى بغداد سنة

٣٩١ هـ رثاه على البديهة بمستهله بقوله:

نعوه على ضن قلبي به فله ملاذ نعي للناعين
وله صلات و داد مع السيراني، ولما توفي سنة ٣٨٥ هـ بعد وفاة
الصاحب رثاه بقوله:

يا يوسف ابن أبي سعيد دعوة لوحى إليك بها ضمير مومج
لم ينسنا كافي الكفاة مصابه حتى رمنا فيك خطب مطلع
ورثى أبي علي الفارسي سنة ٣٧٧ هـ بقوله:

أبا علي للدان قد سطا وللخصوم إن أطلقوا اللفظا
وله رثاء لصديقه أبي المنصور المرزباني سنة ٣٨٣ هـ وكان من
أماثل الكتاب وبارعي المحدثين.

شعوره في شعره

لا نوافي هذا الموضوع حقه حتى نأتي على ديوان الشريف كله،
ونسل منه شعوره ووجدانه ونحل شعره. وهذا بحث واسع الأكتاف،
بعيد الأطراف، يحتاج إلى أفراد في التأليف، وقد خاضه الأدباء ونخلته
أقلامهم، ولكننا لا نخلي الترجمة من كلمة وجيزة فيه مما لا يحسن فيما
يكتب كترجمة أكثر منه:

يترفع الشريف عن مغازلة الغواني ولا يطيعه خياله في معاطفة
الجمال والدلال، أما إذا استصرخ المساعير واستعرض وشيك القنا
واستظل مشار النقع واستقل ظهور الجياد، ونحوض المنايا، طاوعته
شاعريته واستدرجه الحماس، حتى كأنه في معمة. فإذا انتهت بعض
قصائده أشفقت أن يلوثك الدم، أو تخدم بشبا الصوارم، ولكنه قد

ترجمة الشرف الرضي (٧٧)

يغضب عليه خياله، وتسرقه وتسرقه معاني البداوة وعقائل الإطباب،
وتغير اتجاه العاصفة من نفسه فياوافينا بأمثال قوله:

وإني إذا اصططكت رقباً مطوهم وثور حاد بالرفاق عجول
لخافاً وضع للراحتين على الحشى وانظروا نبي ملثموا فاميل
ثم ما يفتأ أن يعود إلى نعرته فيقول: وما رائني نكر الأجابة عن كرى
وقوله:

بتنا ضجيعين في توبى هوى وتقى بلقنا الشوق من قرن إلى قسم
ولمست الريح كالفيرى تجاهبنا على الكتيب فضول الريط واللّم
وبت بلرق ذلك الثغر بوضخ لي مواقع اللثم في داج من الظلم
بما تجملت فيه عاطفة محتشمة اعتصمت بالعفاف وترفعت بالنبل
وقوله:

غزالاً ملطل بيني بلجزاع الغديرين
رفوني عنده تطلق بين الهجر والمسين
إلا لا شللا يادامى القلب يتصلين

ثم يستهويها بما تستلذه نفسه من مواقف الشوس البهاليل فيقول:
سلي بي جولة الخيل وملطف العجاجين

وخطر القنا والموت مضروب الروافين

ومن المستقل أن تكلف القريحة لغة الفروسية في ملاطفة الحبيب،

كما فعل الشريف في قوله:

زبّ بدر بت أجمه صليحياً والهدر نشون
فنت خيل اللثم اصرفها حيث ذلك الخد مودن

والشريف حتى في غزله لا يترك الأدعاء فيقول:

ومقبل كفي ووذنت لوائه أهوى إلى شفتي بالثقبيل
جانبته فضل العتاب وبيتنا كبر الملول ودقة المملول

ومن دقيق وجدانياته التي جمع فيها بين البساطة البداوة ودقة الحضارة، قوله:

يا ظبية البان ترعى في خمائله ليهتك اليوم أن القلب مرعك
الماء عندك مبدول لشربه وليس يروك إلا مدمع البلكي
أنت النعيم قلبي والعذاب لـه فما أمرك في قلبي وأحلاك

وعمم جمع المختار من شعر الشريف وحلل شاعريته في عصرنا، الشريف أبو طالب العلامة علي بن ياسين العلاق وسمى مؤلفه "المرتضى من شعر الرضي".

صلاته بالخلفاء والملوك والوزراء

ولد الشريف سنة ٣٥٩ هـ وتوفي يوم الأحد السادس من المحرم سنة ٤٠٦ هـ على ما هو مشهور من ولادته ووفاته. ويقال في الوفاة أنها سنة ٤٠٤ هـ وإن كان الذي يظهر لي من قوله يعرض بنفسه:

بن الثلاثين والسبع التوين به عن الصبا فهو مزور ومنعطف

في قصيدته التي مدح بها بهاء الدولة سنة ٤٠٠ هـ خلاف ذلك. وقد ذكر تاريخ القصيدة في نسخة الديوان المطبوعة في بيروت، وفي النسخة الخطية التي في مكتبتنا. ولكنني في شك من صحة ما كتب في تراجم شعره في هذه النسخة فان فيها خطأ وغلطا كثيرا، والخلاف واضح إذا لاحظنا سنة ٤٠٠ هـ التي مدح بها بهاء الدولة، والسبع والثلاثين من

عمره، وما ذكر في تاريخ الولادة والوفاة على حساب المعروف من عمره، تكون مدته (٤٧) سنة. أ حذف منها عشراً، اقل ما يكون قضاها طفلاً حتى ترعرع بين الحواظن والأمهات ثم أستوى لمشاكل الحياة وتيهت فيه الغرائز، واعتمد الاستقلال وأخذ أسباب الرشد في سنة ٣٦٩هـ. وابتدأت حياته العملية وعرف الموالي من القالي ومن يجامل ممن يطاول. ففي هذه المدة من الزمن (٣٧) سنة التي قضاها في عاصمة العباسيين، ولم يارحها إلا لأسفار قصيرة سيرته لها هذه العاصمة، أو اقتضتها بعض الأحوال. لابد من أن نعرف تقلبات الحكم فيها بنحو الإمام، ومن اختلف عليه من الخلفاء والملوك والوزراء، ومبلغ ما كان للشريف من الشأن في هذه الظروف، وما له من الصلات والمحاولات. لا ريب أن الموقف في هذه المدة من الزمن دقيق وحر ج على أمثال الشريف. فالحكم في مدينة السلام كان من نوع الاحتلال العسكري لملوك آل بويه، وأن للخلفاء العباسيين سيادة ولكنها مستغادة، إلا أنها في الوقت نفسه نافذة ومرعية فيما يحاول الشريف من المراتب والوظائف، كالنقابة وأمثالها مما لا تصطدم مع جوهر الحكم، ولم يضغط عليها التشريع العسكري، ولا تخشاه السلطة الاحتلالية المهمة. ولكن مشيئة القوة فوق إرادة الخليفة، وهما على كفي ميزان في النشاط والهوان، كلما نشطت واحدة ضعفت الأخرى، فلا تكون السلامة ولا يكون النجاح مضمونين للشريف ما لم يستدرج لعاطفتين ويجامل السلطين، وهما وإن اتفقتا في المراسم والمظاهر فالحقيقة على أشد ما يكون من الاختلاف في باطن الأمر، والمنافسة في لسلطان. فماذا يصنع الرضي ومن أي الموردين يروي نفسه الظائمة لطامحة في

(٨٠)صلاته بالخلفاء والملوك والوزراء.

سنة ٣٦٣هـ بويغ للطائع وفي سنة ٣٨١هـ خلع وخلفه القادر بالله واستمرت خلافته إلى سنة ٤٢٢هـ. وملك معز الدولة ابن بوية مدينة السلام (٣٣٤هـ - ٣٥٦هـ) ثم ابنه بختيار إلى سنة ٣٦٧هـ من جملتها من سنة ٣٦٣هـ إلى سنة ٣٦٧هـ كان الحكم يتراوح بين بختيار وسبكتكين حاجب المعز وأمير الأتراك الذي نصره الجمهور لأنه سني العقيدة وبين عضد الدولة عم بختيار ومن سنة ٣٦٧هـ ملكها عضد الدولة إلى سنة ٣٧٢هـ ثم ابنه صمصام الدولة إلى سنة ٣٧٦هـ ثم أخوه شرف الدولة أبو الفوارس الذي رد إلى والد الشريف أملاكه حتى سنة ٣٧٩هـ ثم أخوه بهاء الدولة إلى سنة ٤٠٣هـ ثم ابنه سلطان الدولة أبو شجاع إلى سنة ٤١٦هـ. وقد أقام بهاء الدولة بالأهواز سنة واحدة، واستخلف ببغداد أبا علي ابن جعفر المعروف بأستاذ هرمز، ولقبه عميد العراق. وفي سنة ٤٠١هـ توفي أبو علي فاستعمل مكانه بهاء الدولة، أبا غالب ولقبه فخر الملك، وفي سنة ٤٠٦هـ قبض عليه أبو شجاع سلطان الدولة وقتله.

ولقد كان عصر الشريف عصر اضطراب وفوضى، وكان الموقف بين تلك القوى المختلفة المتدافعة حول الجاه والسلطان، حرجا وهو للنفس الطامحة التي تتوق أن تندس بين التاج والسرير، وتسهم لها بنصيب من ذلك السلطان دقيقا...

وفي مثل هذه الظروف تروج سوق الظنون والتهم، ويؤاخذ بمعاريض الكلام ولوازمه وكناياته وعلى الكنايات. وكل يدعي أنه أبو الجميع وسيد المجتمع.

ولقد كان الخلفاء والأمراء والوزراء في هذا العصر تتنافس على استصفاء الكتاب والشعراء، وتحقد على من لا يوافيها بأدبه وشعره، فان ابن عباد كان يحرق الأرم على المتنبي لأنه ضن عليه بمدائحه له، وان الصابي كانت نكته من عضد الدولة على كلمة ظنها تمس - يبعيد - معناها بكرامته.

والشريف، من باب أن الغاية تبرر الوسطة، كان ربما يتاجر بشعره في ربح مودة رجال الدولة بعد أن اشتهرت شاعريته، وخطبت مدائحه ويعتذر عن ذلك بقوله:

وما قولي الأثعار إلا نريعة إلى لعل قد لن قود جنيبة
واني إذا ما بلغ الله منيتي ضمنت له هجر القريض وحره

دور والدة الشريف

للمرأة في التاريخ السياسي الإسلامي مواقف رهيبة كانت هي فيها عاملا خفيا قويا، تتطامن له العروش وتم على حكمه الانقلابات الكبرى، ولقد علمت أن فاطمة والدة الشريف، ابنة أخت لزوجة معز الدلالة، أميرة البلاط وقهرمانته، وابنة خالة ولده عز الدولة بمختيار. وهذه المصاهرة عقدت على حساب وتدبير وتدبير، ومن أسبابها جليل مقام الناصر الأصم صاحب الديلم، وعظيم شأنه في تلك البلاد. وربما كان والد الشريف قد زوجها بالسعاء الذين يسرون بأنباء العاصمة إلى والي الأهواز معز الدولة، ويعرفونه بمصير الأمور فيها وضعف الخلافة ووهنها واستيلاء الأتراك وأميرهم (تورون التركي) على صولجان الحكم ويستشيرون همته لاملاكها وهكذا كان، فقد دخل معز الدولة

البيت من أبوابه، وقد كان المستكفي صنيعة الأتراك، بواسطة حظيته التركية التي سماها (علم).

وما دامت علم هذه مع الخليفة المستكفي، فلا يهدأ بال معز الدولة وارث الحكم التركي والقاتك برجاله فقد عمد إلى خلع المستكفي وسمل عينيه وقطع لسان (علم) همزة الوصل بينه وبين الأتراك ثم أقامت المطيع مقامه ولو لم تكن الخلافة في ذلك العصر لابد منها إقناعاً للجماهير ولا بد أن تكون للعباسيين، لأنها معز الدولة إلى هذا الحد واجتثها من أصلها. ويظهر لنا من فزع المطيع في مشكلاته إلى والد، وتمكينه له من الوظائف العظام إن الصلات والوشاتك كانت ما بينهما مبرمة محكمة قبل استخلافه. ولقد كان المطيع يرى أنه هو الوارث الشرعي للخلافة العباسية من أبيه وربما كان أبو أحمد واسطة عند معز الدولة في صرف الخلافة إليه تلك التي تقمصها إلى أن تنازل عنها لوالده الطائع. وفي أيام المطيع توفي معز الدولة، وماذا يكون في شأن الشريف وقد ملك بعده ابنه بختيار، الذي عطفته العواطف وأطلت به شواجر الرحم نحو الشريف أبي أحمد، فظهر أمره وارتفع قدره وبختيار هذا من ملوك اللهو واللعب، الذين لا يبالون بالمجازفات ولا ينظرون العواقب بعين البصيرة، وعقيدة آل بويه في الخلافة معروفة. فكانت هذه الأمور من أسباب السعادة والهناء لهذا الشريف ولا ننسى هنا التجربة المعروفة (ما في الآباء يرثه الأبناء) فقد أوجب هذا أن ينشأ الشريف على مودة الطائع والولاء له، وينفرد بذلك الرضي عن أخيه المرتضى الذي ليس له في نفسه اتجاه سياسي ولا رغبة في شؤون الحكم والسلطان، فقد أنس بزهد، وزهد في أنسه، وتورث النسك من أبيه.

وقد حدثنا الخطيب أن ابن عباد كان يقول أشتهي أن أدخل بغداد فأشاهد جرأة محمد بن عمر العلوي وتنسك أبي أحمد الموسوي، وظرف أبي محمد معروف.

ولما استقل الطائع بالخلافة بعد أبيه واستوى على العرش عز الدولة، كان ذلك الدور من أنها أدوار حياة أبي الشريف، تهابه الوزراء وتحاشاه الحجاب والكتاب، فقد عزل بختيار وزيره أبا الفضل العباس ابن الحسين لعداوته له تلك العداوة التي نشأت من بغضه للشيعة وكان أبو أحمد سفيره إلى (الفتكين) أمير الأتراك وللصلح بينه وبين أبي تغلب بن حمدان. وفي هذه الظروف تكونت الصلة المتينة بين هذا الشريف والصابي. وقد حرك له الوتر الحساس وصب في روحه الأمانى العالية، واستدرجه إلى الثقة به، لما أنس منه الطموح والافتتان بذلك وقد تحدرت منه هذه النزعة إلى ولده الرضي. فان في رسائل الصابي التي تتعلق بهذا الشريف ملق كثير، ومدائح فيها إغراق وإغراء. والصابي حاذق ماهر بما عنده من التجارب الطويلة في خدمة الخلفاء والملوك وفي أساليب المصانعة والملق.

وقد استسلمت الخلافة لعز الدولة ومرج نفوذها بحكم سلطانه، وفي ذلك يقول الصابي في إحدى رسائله:

ان أمير المؤمنين يعلمكم أن عز الدولة يده التي يبطش بها وعدته التي يعول عليها، (ومنها) وقد قرن أمير المؤمنين العهد في ذلك عليكم بعهد البيعة الحاصلة في أعناقكم... إلى أن يقول: «وليس لكم صلاة ولا زكاة ولا عقد ولا مناكحة ولا معاملة إلا مع طاعته سرا وجهرا وقولا وفعلا، فاعلموا أن ذلك من رأي أمير المؤمنين... إلى آخره».

وقد عرف الطائع من أين تؤكل الكتف فأباح لبخيار إباحة مطلقة، كل عناصر القوة في خلافته ومكنه حذقه من الحيل والإغراء، أن يأخذ بمجامع قلبه. فاستمال بذلك الحاشية ومنهم أبو الشريف إلى ولاته. وانعطفوا على تعظيمه على الحدود والتي تنفق ومشية الحكم البختاري من أبهة المظاهر وفخفة المراسم، والعظمة الجوفاء. وتمشى الشريف على هذه الصلة، فكانت مدائحه له متوالية ينتظر لها المناسبة، ليكيلها بالأصواع. وقد يتناسى الشريف فيها فرديته ونفسيته في احايين كثيرة فيخاطب الخليفة العباسي، بما يخاطب به الإمام المقترض من الله بالنصر كالأئمة (عليهم السلام) عند الإمامية. ابتداء هذه السلسلة من قصائده وعمره (١٥) سنة، فلقد كان مولد الشريف سنة ٣٥٩ هـ وأول ما أنشأه من مدائح الطائع على ما يرويه جامع الديوان قصيدته التي يمدحه بها سنة ٣٧٤ هـ في أيام (صمصام الدولة) الذي كانت وطأته عليهم أخف من وطأة أبيه وفي هذه القصيدة شكاية من الأعداء ومن الزمان منها:

وهذا الدهر خفض من غرامي ورنق من غبوقى فى اصطباحى

ثم سكت الشريف عن مدحه في السنة التي بعدها وربما كان سكوته من جهة أن الطائع لم يعبأ بقصيدة الشريف، لصغر سنه ولم يكن لمدحه الشأن الذي يستغله الخلفاء بالإشادة بعظم شأنهم وإشاعة مدائحهم على لسان الشعراء البارزين الذين كانت مدائحهم أشبه بالإعلانات التي تروج بها السلع إلا أنه يمكن أن تكون قصيدة الشريف هذه قد شاعت لجودتها فمست أريحية الطائع فاجزل له الصلة في سنة ٣٧٦ هـ وتنبهت قريحته فمدحه وهناه بمهرجانه بقوله:

بالباطع الميمون أنجح مطلبني وعلوت حتى ما يطول معقلي
رأي الرشيد وهيبه المنصور في حسن الأمين ونعمة المتوكل
وفي هذه السنة بالغ الطائع في إكرام والد الشريف واحترامه عند
عودته من فارس، فمدحه الشريف بمستهلته:

بالباطع الهادي الإمام اطاعني أمني وسهّل لي الزمان مرامي
ثم جاءت سنة ٣٧٧ هـ وفي مهرجانها يقول فيه:

ليدي أمير المؤمنين كثيرة وما لأمير المؤمنين مـذال
ولوقاته الثلاثي تسوق قصيرة وأيامه الثلاثي تسر طسوال
وفي عيد الفطر من هذه السنة يهنيه بقوله:

إلى كم للطرف بالبيداء معقود... (الأبيات).

وفي هذه السنة أيضا عاتبه ومدحه بقوله:

أراعي بلوغ الشيب والشيب داليا وأفنى الليالي والليلي فنقيا
ثم لما تصرمت هنأه بالمهرجان من سنة ٣٧٨ هـ بقوله:

جزاء أمير المؤمنين ثنائني على نعم ما تنقضي وعطائني

وكان الشريف يحرص على مودة الطائع ويغار عليه، من أن يتصل
به من يناوئه وقد استمال بعض أعدائه الطائع بالمال فغاضه ذلك وقال:

ونمي إلى من العجائب أنه لعبت بعقلك حيلة الخوان
فلحذر عواقب ما جنيت فربما رمت الجنابة عرض قلب الجاني

وفي هذه الأبيات نصيحة جافة، لا يسديها إلا ند لنده، مما يدلنا على
أن المودة بينهما أدت إلى التسامح في بعض واجبات المجاملة والحشمة.
وفي هذا العام تعددت مدائحه للطائع واستؤنفت الصلة ما بينهما،

فاستترف قريحته في مدائحه وتهانيه. ثم أراد أن يستغل ذلك سنة ٣٧٩هـ فأوجم ونفسه قلقة ولم نقرأ له فيها سوى قصيدته التي يعاتب بها الطائع على تأخير الأذن في لقائه بمجلس خاص، بعد مواعيد كثيرة. وفي هذه القصيدة حماس ومدح واستعطاف، وفيها عتاب و استغناء عما لا يوجب له قدرا وفيها ميل إلى الشأم وما فيها من رعاية وعناية تستمد من حكومة العلويين (منها):

ضربنا إينا خدودا وساما وقلن لنا اليوم موتوا كراما
ومنها:

إذا ما اتجنى إلى ابن المطيع حمدنا السرى وأطلقنا المقلم
إمام ترى سلك آياته بعيد الرسول اماما اماما
يعيد لعليانه هاشما إذا ما الأذلاء عدوا هاشما
فهل صلفق فابيع العراق غير غيبين وأشري للشمما
سلام إذا لم يكن لقبه وان يدا ابن تردوا السلاما

وفي سنة ٣٨٠هـ كان يتجزز الأذن بالوصول إليه وفيه الوصول إلى الأمانى فقال:

متى لنا قاتم أعلام قلمي ولاق نور وجهك والسلام
وعتب عليه الطائع في تأخير مدحه وأنجز له مواعيده فقال:

الآن أعريت الظنون وعلا على الشك اليقين

وفي سنة ٣٨١هـ مدح الطائع بقصيدة فيها عتاب للوزير علي بن أحمد البرقوهي وهي آخر قصيدة من نوعها، مدحه فيها وهو خليفة ومطلعها:

تلقى الليلي أن تديما يؤسا لخلق أو نعيما

وفي هذه السنة قبض على الطائع في داره، في محفل حافل بالقضاة
والسراة، وكان الشريف فيهم ففر هاربا ونجا سالما وفي ذلك يقول:

أعجب لمسكة نفس بعد مارميت من النوائب بالأفكار والوعون
ومن نجاتي يوم الدار حين هوى غوري ولم اخل من عزم ينجيني
أمسيت أرحم من أصبحت أعبطه لقد تقارب بين العز والهون

في هذه السنة قال يذكر أيامه ويأسف على خلعه ويتوجع مما لحقه:

إن كان ذاك الطود خر فبعد ما استعلى طويلا

ثم سد هذا الباب وأرخی على هذه الصفحة الحجاب، وجمد
خيال الشريف من هذه الناحية إلى أن توفي الطائع في مجلسه وهو مخلوع
سنة ٣٩٣هـ فقال يرثيه:

أيها للظاعن لا جز الحيا أبدا بعدك بالحي الحلال
كنت في الأحجال أرجوك ولا أرتجي اليوم عظيما في الحجال

وفهمنا هذا الشعر، أن الشريف عقد رجاء منذ نشأ بناصية الطائع.
وإذا تأملنا سيرة الطائع، نجد من الرجال المحنكين ذوي البصيرة
والرأي، فلم تحدعه الظواهر. فقد عرف أن أمر الخلافة أصبح ضعيفا،
لا يعبا به، وأن السلطة تتردد بين الديلم والأتراك في بغداد، وان قوى
الأتراك محدودة في ذلك الوقت. أضف إلى ذلك ميل الديلم إلى
الهاشميين على الإجمال، وان عطفهم عليهم أكثر وأعظم من ميلهم
إلى الأتراك، أنصار مبدأ الجمهور في بغداد، وبالطبع كان الشريف
وأبوه أشد ميلا للديلمة، ولقد كان إسلام الشاعر (مهيار الديلمي)
وولاؤه للشريف وأبيه مندفع عن أسس صحيحة، وكان معز الدولة

يعرف أثر الترك في شؤون الدولة، وقد أوصى ابنه بختيار برعايتهم فلم يعمل بنصيحة أبيه ولما التحم الديلمة والأترك في بغداد وانتصر الفريق الثاني أخرج الطائع وأبوه منها لما عرفوه من ميلهما إلى الديلمة. وعضد الدولة هو الذي رد الطائع إلى بغداد. وقد توفي الطائع في المنفى.

ومن دهائه زواجه بنت بختيار وكانت المنفعة متبادلة بهذه المصاهرة، وقد أصدر ظهيرا بقلم الصابي. نشره في الأقطار بلزوم إطاعة بختيار وأشار فيه إلى تلك المصاهرة ولم تؤثر هذه المصاهرة في عاطفة عضد الدولة نحوه، لما استوى على بغداد فقد قتل بختيار وتبع رجاله وحاشيته ومن والاه. ولقد تمسك الطائع بمبدئه من الميل إلى الديلم مع ما كان من تغير الأحوال بينه وبين بختيار في آخر الأمر لما ضاقت به المسالك وقل المال في يده وطلب مالا من الطائع لغزو الروم، فأجابه إن صرف المال على من تجيء إليه، وأنا ليس لي إلا الخطبة.

وقد نكب عضد الدولة أبا طاهر بن بقيه، وزير بختيار وقتك بالصابي كاتب ديوانه، وأمر وزيره عبد الله أن يعتقل والد الشريف ويسيره إلى سجنه بالقلعة بفارس فعانى ذلك والد الشريف وصودرت أملاكه كل هذا من أجل صلته التي عرفتها ببختيار. ولم أقف على ذكر للعام الذي اعتقل فيه سوى ابن أبي الحديد يقول، أنه حين قدم العراق قبض عليه وحمله إلى القلعة بفارس. وكان دخول عضد الدولة إلى بغداد سنة ٣٦٧هـ وقد بقى معتقلا فيها إلى أن ورد بغداد سنة ٣٦٧هـ. أي بعد وفاة عضد الدولة بأربع سنين ذلك لأنه توفي سنة ٣٧٢هـ عندما دخلها شرف الدولة. إلا أن الطائع احتفظ بتلك الكرامة التي كانت له على عهد بختيار بدهائه وبصيرته، وتزوج بنت عضد

الدولة وفوض الأمر إليه عند دخوله بغداد. فسأله أن يسمع الناس بذلك، فقال ليحضر أبو أحمد الموسوي والد الشريف فلما حضر ومن معه أشهدهم على ذلك. لقد كان عمر الشريف لما اعتقل أبوه ثمانين سنوات، وأطلق وهو ابن ست عشر سنة حسب ما نستنتج من ضبط تواريخ الأحداث الآتفة، أذن فالشريف ممن روعته حكومة عضد الدولة وهو غلام، وممن نشأ على مقتها وكرهها وقد مضى صمصام الدولة بن عضد الدولة على عداوة أبيه مع والد الشريف، وقد كانت المكارة تحتوشه من داخل مملكته وخارجها. وكان سعى السيرة في هذا الدور (أي من سنة ٣٦٧ هـ إلى سنة ٣٧٦ هـ) الذي تشطر الحكم فيه على بغداد وعضد الدولة و صمصام الدولة كان من أسوأ الأدوار التي مرت على حياة الشريف وأشدّها بؤساً. وفيه يتذمر من بغداد ويقول:

مالي لا أرغب في بلدة ترغب في كثرة حملي

فان أباه في المنفى وأملاكه مصادرة، وأخاه المرتضى قد قبع في بيته وانفزل عن كل شيء، ويظهر مما ذكره جامع الديوان أنه ذهب لزيارة أبيه في فارس. ثم لم يسمح له بالرجوع وبقي معتقلاً إلى أن أفرج عنهما. قال الجامع وقد مدح (أباه) ويذكر خلاصه وخلاص أخيه من القلعة بشيراز. انتهى.

ولم يعرف ان المرتضى اعتقل مع أبيه، ولا نعرف عقبا لأبي أحمد غير الشريفين. وكانت فاطمة أم الشريفين هي التي تقوم بشأن ولديها، وتتولى الإنفاق عليهما مما ادخرته لنفسها، ومن العقارات والأطيان التي ورثتها من آبائها وترشدهما إلى طرق التعليم، وتتوسل إلى رجال العلم في تعليمها وهما غلامان حدثان منكوبان من السلطان. وقصتهما

(٩٠) دور والدة الشرف

مع الشيخ المفيد (رحمته) قد مر ذكرها فكم كانت هذه الوالدة مباركة على أبنائها، في أخرج الأدوار التي مرت عليهم. فكلما تقرأه من رثاء الشريف لها قليل في جزاء عاطفتها وحنانها، على ولديها وتثقيفهما وتربيتهما ولم يبالغ الشريف إذا قال فيها:

فمن الممول لي إذا ضالقت يدي ومن المعلن لي من الأنواء

لو كان مثلك كل أم برة غني البنون بها عن الآباء

لقد كان الشريف في أواخر هذا الدور، يقرض الشعر وقد عرف به في بغداد. ولم يسمعا منه في آل بويه شيئا إلا ما كتبه لأبيه وهو معتقل بالقلعة في شيراز، لما ظهر موت عضد الدولة. وقد مرت عليك أبياته في ذلك. وإذا قرأتها تجد الروعة والرغبة تترقرق بين كلماتها، وليس فيها من أمر عضد الدولة إلا الكتابة والرمز، ثم لما انقضى هذا الدور ابتسم لهم ثغر الدهر كان شرف الدولة واليا من قبل عضد الدولة أبيه على كرمان، ولما بلغه موت أبيه سار إلى فارس فملكها ونفسه طامحة إلى دار السلام، ولا ريب أن أبا أحمد والد الشريف، لما دخل اتصل بشرف الدولة في فارس وأعمل بصيرته ورأيه في استغلال هذه الفرصة، وبلغه ضعف صمصام الدولة، وكانت قوة شرف الدولة الفاتح ماثلة لديه، فاستعمل - جهده - كل الأسباب التي تقربه من شرف الدولة، وفي الوقت نفسه كان شرف الدولة يحتاج إلى مثل أبي أحمد الذي يعرف من بغداد ظواهرها وخفياتها، والذي يتمتع بشهرة واسعة بين الزعماء والسراة، والأكابر والعشائر التي تقطن الأرياف المحيطة بها. والخبير البصير بأسرار حكومتها وتقاليدها. فمن هنالك انعقدت الصلة ما

ترجمة الشرف الرضي.....(٩١)

بينهما وافرغ عن أبي أحمد، وكان كملحق سياسي في الحملة العسكرية التي جهزها شرف الدولة على بغداد، ولما توجه من فارس بصحبة شرف الدولة سنة ٣٧٥ هـ مدحه ولده الرضي بمستهله بقوله:

وقف على العبرات هذا الناظر وكفاه سقما أنه بك ماسهر

ولما دخل شرف الدولة مدينة السلام فاتحا، حسر الشريف عن ذراعي خياله، وتفتقت أغشية قريحته، واستبشر لهذا العهد الجديد، فقال يمدح شرف الدولة ويشكر صنائعه عند أبيه، ويصف اعتقاله بالقلعة بشيراز، بقصيدة أنشأها سنة ٣٧٦ هـ تمثل الظروف التي أنشئت فيها، فهي مخللة بغيار النقع ومصبوغة بدم الأعداء، وتخفق فيها رايات الفتح، ويقايس بها بين دوري الامتحان والامتحان فتستلذ السعادة في هذا من ذكرى الشقاء في ذلك ومطلعها:

لحظي للملوك من الأيام والدول من لا ينالم غير البيض والأسل

وقد وفي له شرف الدولة ورد على النقيب أبا أحمد جميع أملاكه.

وفي هذه السنة مدح أبا نصر سابور بن ازدشير عند قدومه مع شرف الدولة بقصيدة منها:

حتى بلغت من العلياء منزلة تغدى الأعاجم فيها بالأعريب

ويظهر لي أن أبا نصر هذا قبل أن تتمهد الأمور، كان يضع كل ثقته

بالشريف وأبيه، ويسمع من أبي أحمد مدائح ولده هذا وشهامته وشعره فراقه أن يصاهر الرضي بتزويج ابنته منه، وما زال العلويون ولا يزالون يتبعون سياسة رشيدة في عقد المصاهرات مع الملوك والسراة، وهؤلاء لا يستنكفون من ذلك لشرف الأصل وطيب المحتد،

ولما ورد في السنة من الترغيب إلى ذلك. ولكنه لما فتح مدينة السلام
وثل بخرمة النصر، واثالث عليه أمراؤها وساداتها وعظماؤها، تخطب
وده واستبطن الدخائل، فسح عقد المصاهرة على ابنته. وكما كان
العقد سياسة، كان الفسخ سياسة أخرى. وما أقبح السياسة وألوانها
وفي ذلك يقول الشريف:

وبني لا أرجو من علاك دولة تذلل لي فيها الرقاب العواند
إلى أن يقول:

فمن ذا يرامين ولي منك جنة ومن ذا يدانيني ولي منك عضد
وحام على ما بيننا من قرابة فإن الذي بيني وبينك شاهد

وفي سنة ٣٧٦هـ بالغ الطائع في إكرام أبي أحمد عند عودته من
اعتقاله، واستعاد ذكرى المودة القديمة ما بينهما، وربما يكون قد
استعان به على تحسين صلته مع شرف الدولة. والطائع داهية المجاملة
والماهر البارع في تمشي الأحوال مع الملوك من طريق رجال الحاشية
والإدارة وأرباب الخطوة عندهم.

وفي هذه السنة أخذت حال الشريف وأبيه تزكو وتدرج من حسن
إلى أحسن ومن هني إلى أهنا، فالوفاق السياسي بين شرف الدولة أبي
الفوارس والطائع مبرم، والشريف وأبوه يشربان من الكأسين ويفوزان
بالحسينين، وقد توفي شرف الدولة سنة ٣٧٩هـ فرثاه الشريف بطرف
دام وقلب كتيب، فقال:

أبا الفوارس ما أعلى بدا عصفت من المنون بأعلى عزل والمسامي

إلى أن يقول:

أعداء عزّلي غضاً وخولاً ما شاء من بخل اعزاز وإكرام
ثم ملك بهاء الدولة، وكان سلطانه وملكه سلطان وراثه لا سلطان
غزو وفتح. والملوكية في الحكومات الأرسقراطية الموروثة تختلف
بالروح والجوهر عن الملوكية التي تشتري بالسيف والدم، وتأخذ من
أربابها بالفتح والغلبة. فان الأولى تكون فيها عناصر الحكم مرعية
الجانب، والوضع الراهن محترماً والرجال لهم كرامة عند الخلق إلا من
شد وند منهم لأمر شخصية وليس الحال كذلك في الثانية، فان
رجالها يشتهب فيهم بالتهم ويرعون بالاحتياط، وتسمع فيهم الوشاية،
ويمتهنون بالنكابات والنكبات. وعلى الكتابات تكون النكابات إلا من
استطاع أن يبرهن على برائته وولائه ونزاهته.

وإذا تمسنا على هذه النظرية فان الدور المعزى (نسبة إلى معز
الدولة) يتهي بسقوط ولده بختيار، ثم بيتدىء الدور العضدي في بغداد
ويتهي باعتقال ولده صمصام الدولة ثم بيتدىء الدور الشرفي ولا
يهمنا متى يتهي. فإذا تأملنا حياة الشريف العملية نجدها تنقسم إلى
أربعة أدوار، يتهي الدور الأول منها بانتهاء الدور العضدي، وهذا
الدور قضاء الشريف بالآهات والحسرات، وذكرى مجد الآباء والأعمام
والنياحة على من فرط وذم الزمان، وعداوته للنبلاء والأعيان
والتحمس لشعور مجهول لم يستعرض فيه الهدف. وهذا الشعور دائماً
يحدث عند النفوس الملاً بالأمها، وشعره في هذا الدور أغلبه من هذا
القبيل.

ثم يبدأ دوره الثاني بابتداء الدور الشرفي، وفيه تبدل الكآبة بالابتسامة، والحسرات بالمسرات ويخلف لنا الدور الأول ذكرى مجد الآباء والافتخار بهم، والاعتزاز بالنفس والزهو والخيلاء، والتماجد بالشيم والسجايا الشخصية وتجدد في شعره الكثير من هذا القبيل. ثم ينتهي هذا الدور بخلع الطائع سنة ٣٨١هـ.

ويتدئ الدور الثالث، وكله مطالبات بحقوقه وفيه ملق ومصانعات واستدراج للخليفة والسلطان وذويهما. وادعاء ابنه فيه شعور أولياء الأمور ويستفزهم لرعاية شأنه، وفيه تهديد ووعيد بالالتجاء إلى من يرعى الحق ويسدي الواجب لأهله. فقد جلس القادر بالله سنة ٣٨٢ هـ جلسة أذن فيها للناس عموما ورسوم للشريف الحضور في ذلك المجلس على رسمه في السواد، فقال الشريف في ذلك قصيدة جمع فيها للخليفة الإطراء ولنفسه الاعتزاز، وأنها فرعا دوحه وقسيما سيبكه فقال:

أبغاة هذا المجد إن مرامه نحض يزل الصاعدين ويزلق
ودعوا مجاذبة الخلافة أنها أرج بغير ثيابها لا يعبق
وفي هذا البيت مجاملة وتنكب عن المزاخرة إلى أن يقول:

وأنا القريب إليك فيه دونهم ليدي عندك طوذ عز اعنق
عطفنا أمير المؤمنين فبتنا عن نوحه العليام لا تنفرك
ما بيننا يوم القحار تفلوت لبدا بكلامنا في المفخر معرك
إلا الخلافة ميزتك فباتني أنا عاظم مئنها وانت مطوق

ولقد كان بهاء الدولة يميل إلى الأتراك أكثر من ميله إلى الديلم، ويستنصرهم عليهم، وكانت الدولة تقوم بهم في أيامه. كما أن الناقمين على الدولة في بغداد كان شعارهم التظاهر بالولاء للدولة الفاطمية، وأكثر المجرمين السياسيين في بغداد كان مأواهم القاهرة، كما هو مأوى الأحرار على العهد الاستبدادي التركي في العصر الذي أدركناه. ولما سافر الشريف إلى الكوفة وشاع عنه أنه يريد مصر وفيها العلويون آب مسرعا وقال قصيدته التي يتصل فيها من هذه التهمة، والتي يمدح فيها الأتراك الذي هو مدح لآل بويه في ذلك الحين منها:

أثرك أملكنا رزانا حلومهم حلولا على الزوراء أيمتهم عهدا
ولا يلتف الجبارُ نَ يعتقنهم ولا الخربلى أن يكون لهم عبدا
آل بويه ما ترى الناس غيركم ولا نشتكى لمرأ لغيركم فقدا
خفوا بزمامي قد رجعت إليكم رجوع نزيل لا يرى منكم بدا

وللشريف في هذا الباب أبيات مشهورة، ثار بها على القادر بالله، وهدده بالالتجاء لمن لا يراه أهلا للخلافة، ولا يعترف له بأمرها، وينازعه ويشاطره فيها في الممالك الإسلامية. ويحدثنا ابن خلكان، أن القادر بالله عقد مجلسا أحضر فيه أبا أحمد الموسوي وأبنة المرتضى، وجماعة من القضاة والشهود والفقهاء وأبرز إليهم أبيات الرضي أبي الحسن وقال الحاجب للثقيب أبي أحمد قل لولدك محمد أي هوان قد أقام عليه عندنا..؟ وأي ضيم لقي من جهتنا وأي ذل أصابه في ملكنا...؟ وما الذي يعمل معه صاحب مصر لو مضى إليه...؟ أكان يصنع له أكثر من صنعنا ألم نوله النقابة ألم نوله المظالم؟ ألم نستخلفه

على الحرمين والحجاز؟ وجعلناه أمير الحجيج!! فهل كان يحصل من صاحب مصر أكثر من هذا...؟ ما نظنه كان يكون له لو حصل عنده. فقال أبو أحمد، أما هذا الشعر فمما لم نسمعه ولا رأيناه بخطه ولا يعد بأن يكون بعض أعدائه نخله إياه. فقال القادر إن كان كذلك فليكتب الآن محضرا يتضمن القدر في أنساب ولاة مصر، ويكتب محمد بخطه فكتب المحضر وشهد الجميع فيه ومنهم أبو أحمد وابنه المرتضى. وحمل المحضر إلى الرضي أبوه وأخوه فامتنع من تسطير خطه واعتذر بأنني أخاف دعاة صاحب مصر، واقسم أنه ليس بشعره وانه لا يعرفه. وألح عليه أبوه فلم يفعل وقال أخشى دعاة مصر وغيلتهم لي، فانهم معروفون بذلك فقال أبوه يا عجباً! أتخاف من بينك وبينه ستمائة فرسخ ولا تخاف من بينك وبينه مائة ذراع..؟ وحلف أن لا يكلمه..؟ وفعلا فعل المرتضى ذلك تقية وخوفا من القادر وتسكينا له. ولما انتهى الأمر إلى القادر سكت على سوء أضمره له، وبعد ذلك بأيام صرفه عن النقابة وولاها محمد بن عمر. انتهى. والآيات هي:

ما مقامي على الهوان وعندي مقول صسارم وانفا حسي
إلى أن يقول:

حمل الضيم في بلاد الأعداي وبمصر الخليفة العلوي

ومنها:

لنا عرقه بعرقه سدا الناس جميعا محمد وعلي

ومن هذا البيت الذي يعترف فيه الشريف بصحة نسب العلويين،

واتصال نسبه بنسبهم، نعلم السبب الذي منع الشريف من التوقيع على

المحضر. وفي هذا الحديث الذي رواه ابن خلكان وغيره نكات تاريخية، ومواضع يمكن الاستفادة منها في حق الشريف وغيره، لا تخفى على اللبيب. وقد ظفرت بنص هذا المحضر في كتاب سكردان السلطان لابن حجلة مرويا عن مرآة الزمان، لسبط ابن الجوزي، ولكنه مذيبل بقوله، وكتب فيه الأعيان الرضي والمرتضى. وهذا لا يتفق مع المعروف من عدم توقيعه فيه وفي المحضر سباب وشتائم مقذعة، وطعن في نسب العلويين ونبز لهم بأشنع الهنات والنقائص.

إن الشريف في هذا الدور لم يكن قانعا بما حصل له من الوظائف وما ناله من الرتب، ولم تكن حاله في أوائل عهد القادر على ما يرام. لأن القادر خلف الطائع على الخلافة وهو طريده في البطيحة، وصلات الشريف ومودته للطائع معروفة، ولأن القادر لم يكن مثل الطائع. فقد كانت فيه خشونة وانكماش، وانصراف إلى مسائل الجدل، والكلام في العقائد مع تحزب وتعصب، ورغبة في أن يتخذ لنفسه هذه الخطة من علماء العصر الغابر، ولا يهيمه الشعر ولا الشعراء، ولا يرغب أن يتصل بهذه الزمرة، فهو بعيد عن الشريف بالخطة والمنهج. وهذان الأمران هما اللذان يبعدان الشريف عنه، إلا أن الشريف كانت حاجته عنده ومضطر إلى مصانعته.

ولم يخسر الطائع الخلافة في زمن بهاء الدولة لأنه كان عاجزا عن استدراج بهاء الدولة، ولم تخنه عبقريته في مراعاة موقفه في عصره ولكنه الدرهم والدينار المفتون بمجمعهما الطائع وخزنهما، وشرة بهاء الدولة في الاستيلاء عليهما، فماذا يصنع الطائع فأما ديناره ودرهمه، أو خلافته. وقد احتفظ بهما فخرهما. أما صلوات الشريف ببهاء

الدولة فهي انه كان يتصل به كشخصية بارزة ذات كرامة ومجد، لا أقل ولا أكثر، ولم يوجد سبب غير هذا يؤكد الصلة ولا عمل آخر يوجب فتورها، ومع ذلك فالشريف هو صاحب الحاجة. ولهذا كان في بداية أمره يوالي عليه مدائح ويكثر من إطرائه حتى يملك ولاءه، ولا يهم بهاء الدولة কিفما كانت الصلة بين الشريف والقادر بالله.

والشريف في هذا الدور كان يقضي حياته بين اليأس والرجاء، ويرغب في الزيادة فكلمما وصل إلى غاية طمع وطمع في التي هي أسمى منها، فإذا يس نار والتهب وصب جامات غضبه، وقد قرأت شيئا من ثوراته النفسية ومجازفاته العدائية فوجدته إذا رجا انصاع وتداني، واستعرض وشائج الرحم وأواصر القرابة مع العباسيين، فقد قال يرثي أبا القاسم الشريف علي بن الحسين نقيب العباسيين سنة ٥٣٨٤هـ:

لستنا بنى الأعمم لبنا تمزجت	بلخلافهم أخلأفن والضرائب
جميعا نمنا في ربي المجد هاشم	وأتجب عنرقينا لوي وغلب
إذا عموا بالمجد لانت بهامنا	عمتهم أعرافنا والمناسب
نرى للشيم من آتفنا في وجوههم	واعانقنا كالت بهن المصقب
وخم داخل ما بيننا بنميمة	ثقطر بما زاحمته المناجب

وفي أيام شرف الدولة، انعقدت المودة بينه وبين الوزير أبي منصور بن صالح وقد استفاد منها لما استمر على وزارته لبهاء الدولة، ولما استقر القادر بالله في دار الخلافة سنة ٥٣٨١هـ مدحه بمستهله بقوله:

شرف الخلافة يا بني العباس اليوم جنده أبو العباس

ويظهر عليه آثار التكلف والشاعرية التي تسخر لها القريحة،
وتعتمر منها. وفي هذه السنة مدح بهاء الدولة بمستهله بقوله:

بهاء الملك من هذا البهَاء وضوء المجد من هذا الضياء
والشريف في شعره يسميه بهاء الملك.

وفي أثناء هذا الدور أي في سنة ٣٨٧هـ أنفذ أبو الشريف إلى
فارس، للإصلاح بين بهاء الدولة وصمصام الدولة، وفي ذلك يقول
الشريف:

من العراق إلى أجدال خرامة يا بعده منبذا عنا ومطرحا
وإذا يئس الشريف نار والتمس الناصر، فتراه تارة يفزع إلى علوي
مصر وأخرى يستشير نخوة ابن ليلى ويبيكه، ويتألم لخسارته بفقده أو
يستميل ربيعه، أي آل حمدان فيقول:

وما سررتني أنني أقيم على الأذى وإني بدار الهون بعض الخلاف
فجويي الفلاو جلوري بي ربيعة وأسرة غيلان للطول الغطارف
أو يتحمس مفتخرا ويطري البسالة، ويشنأ الجبن والجبناء، ويتذكر
وقائع آبائه المساعير، ويصف آماله فيقول:

ولي أمل من نون مبرك نضوه تفتقل اثبناج للمطي البوارك
سقى لك ظمان المني كل عرض من الدم ملأن الملاطي حناك

لقد مر عليك شيء من شعره في ذلك، وينتهي هذا الدور عند
استقرار الحكم ببغداد لعמיד العراق أبي علي، نائب بهاء الدولة،
وخليفته عند إقامته بالأهواز، أي أواسط أيام نيابته واستخلافه. ويمكن
أن ننهي على سبيل الظن والتخمين سنة ٣٩٥هـ. وقد تصرم هذا الدور
والشريف وأبوه يتمتعان بعناية بهاء الدولة ورعايته ومودته لهما، وقد

أثرت مدائح الشريف أثرها وتمكنت الصلة ما بينهما بها. وأما القادر بالله فلم تكن الحال معه على ما يرام، وإن زهده وانعزاله واتجاه نفسه اتجاهها خاصا، قد أوجب أن يظن الشريف أن وطأته تحف عليه ويأمن منه الشر، ولكنه لم يدعه حتى أنفذ فيه حقه وأبرم في شأنه دخيلة شره، فصرفه عن مراتبه ورتبه.

ثم يتبدى الدور الرابع، والشريف لا يتصل بشؤون الدولة وليست عليه مسؤولية من وظائفها ولكن له مقامه الاجتماعي، وفي هذا الدور هدا الجأش وانطفى اللهب، ولزم أبو الشريف حلس بيته، وقد كف بصره وقع الشريف بما استتب له وتحمل المسؤولية على عاتقها، واستكف عن الخطوة الأولى. فهذا الدور كله مصانعات ومجاملات وهو الذي سميت به (بالدور السلمى) فلا مطاولة فيه ولا محاولة، مع احتفاظ بالحشمة وحذر من المجازفات، والتورطات وفي أواخره كان يستكف حتى من شعره الذي غالب به، وقارع فيه الملوك والخلفاء، وطفق يحذو منهاج الوقار، ويرتدي أبراد الاستتكاف والاستعلاء، ويتشدد الهيبة ويصاقل الوزراء والحاشية، ولا يعدو خطط المسألة. ويصطبغ للظروف بألوانها ويتماشى مع مسراتها وأحزانها، ويخشى صولة الجبارين أشد مما لاقى وأنكى. وإذا ذكر أنصاره ورجاله ذكرهم بلهجة الخائف المستجير، فمن ذلك قوله سنة ٣٩٨هـ وقد ذكر أبا العوام:

قل لأبى العوام مستدفعاً به جماح القيد والنزل

يا نجوة الخائف من دهره وبأثقاف الخطل المقل

ترجمة الشرف الرضي (١٠١)

وفي سنة ٤٠٠هـ توفي والده، وله من العمر ٩٧ سنة وعمر الشريف

٤١ سنة فرثاه بقوله:

وسمك حالية الربيع المرهم وسفتك ساقية الغمام المرزم

سبع وتسعون اهتبلن لك العدا حتى مضوا وغبرت غير منم

وكان يحتاط أن تمس كرامته أو ولاءه عند بهاء الدولة أو يظن فيه

الاعتزاز عنه، وقد وشي به عند بهاء الدولة إنه يتكبر عليه في إنشاء

مدائحه له بنفسه، كما هي عادة الشعراء في إنشاد شعرهم. والشريف

لم ينشد بمدوحا له بنفسه إلا أباه في قصيدته التي مطلعها:

إلى الله إني للعظيم حمول كثير بنفسي والعديل قليل

فكتب إليه يعتذر من ذلك:

وما ضر قولا أظاع جناته إذا خاتمه عند الملوك لسان

ورب حي في السلام وقلبه وقاح إذا لف للجباد طعسان

وفي بهاء الدولة يقول:

تعنى رجال نيلها وهي شامس فإين من النجم الأكف الشوامس

والشريف ينسى شخصيته مع بهاء الدولة، ويخلع الادعاء ويمثل

دور الشاكرين، وتشبه مدائحه له بمدائحه لأبيه، فيقول فيه سنة

٣٩٧هـ:

أنا غرس غرسه وأنجل الغرس ما قلرت ثراه سداكا

لم اجذ صابعا سواك ولا أعرف في الناس منعا ما سواكا

وما أقرأ هذين البيتين إلا ويأخذني العجب، إنهما كيف مرا بين

شفتي الشريف، الشفتان اللتان نعهدهما كحاشيتي فوهة البركان..!!

(١٠٢) دور والده الشرف

إلا أن ذلك العهد كان مملوءا بالملق والتبصيص للسلطات المطلقة
الجبارة، فكان ذلك أثر في تصاغر نفس الشريف، أضف إلى ذلك أن
صلة الشريف بالقادر كانت قلقة وفيها كلفة، فلم يبق إلا بهاء الدولة
ومن ثم استدراجه فيقول الشريف في ذلك:

كل يوم فضل علي جديد وعلاء أناله من علاكا

لا سفير إليك إلا معاليك ولا شافع إليك سواكا

وترى في قصيدته التي أنفذها إليه وهو بالبصرة والتي مطلعها:

أغرّبان روع جيرانه لم ينق الغمض ولم نهجع

توسلا وتسولا كثيرا. وفي سنة ٤٠٣هـ عقد أمر الملك لأبي شجاع

بأرجان بعد أبيه، فكاتبه بالقصيدة التي فيها:

لا ثل عرش بني بويه اتهم عذر المكارم والجواب الامرع

أنا غرسكم والغصن لدن والصبأ غض وللعيض القياد الأطوع

ويروي أن آخر قصيدة مدح فيها الملك هي التي مدح بها أبا شجاع

سنة ٤٠٤هـ وفيها يقول:

رام مني قود القريض ولولاه لقد جانب الزمام الأكفأ

هب من رقدة الفتور إليه بعد ما غض نظريه وأغفى

من هذا استفاد أنه بلغ إلى الحد الذي كان يستكف فيه القريض،

ويرغب ألا يتعاطاه، وأن أبا شجاع كان يطالبه به، ومن هذا القبيل

قوله:

مالك ثرضى لن يقال شاعر بعداً لها من عند الفضائل

كفك ما أوردق من أغصانه وطل من أعلامه الأطول
فكم تكون نظما وقتلا وانت غيب القول غير فاعل

واصبح الشريف يغتتم الفرص لسمع بهاء الدولة شعره في مدائحه التي كان يتبخل بها عليه، فلا يمر العام إلا وله قصيدتان أو ثلاث في الأعياد والمواسم وغيرها منذ تولى صولجان الملك، وكان القادر بالله قد تزوج بنت بهاء الدولة، وتراجع في أيامه وقار الدولة العباسية، ونما رونقها وحسنت صلاتها بالبويهيين الذين هم مستقر القوة وموضعها، فكان الشريف بولائه لبهاء الدولة ينال بغيته من القادر بالله. ويمشي الشريف على هذه الخطة في هذا الدور مع قوام الدولة في مدائحه وتهانيه، ومهما يكن من شيء فلا يُعدُّ الشريف متنازلا عن مبدئه، فهو لم يزل كما كان، أبي النفس قوي القلب يترفع عن الدنيا ولا يقبل الصلات من الملوك والوزراء ولا الجوائز التي تندى بها أكفهم كما يفعل المتاجرون بشعرهم. ويأبى لنفسه ما يسوغه أدياء الأدب لأنفسهم، من كسب العيش عن طريقة التزلف إلى الأمراء والسراة وهن دلته التجارب أنه لا يقوى على تلك القوى الجبارة التي كانت تكتفه إلا بذلك، ومن أجل هذا استنزل مبادئه إلى أعماق نفسه، وسترها بالمصانعات ولاذ تحت أغشية الاتقاء، وقد تضعف إرادته عن صيانتها فيتطاير شررها بين آونة وأخرى، فان نفس الشريف حرمت عليه طيبات الحياة إيثارا للأنفة والكرامة، وصونا للعرض من الدنس وإبعادا للمروءة عن مواطن الابتذال. وفي شعره ثورات واندفاعات

نفسية مخيفة، تدلنا على أنه رجل جلال ونضال دافع فيه عن المجد العلوي، وتقم على المعتدين عليه.

وينفرد شعره برقة الحنين على ما ذهب من فراطه عزه، وانه ليحشر في زمرة المجاهدين في الحياة، وبالرغم عما يحيط وظيفه النقابة من قيود الرزاة وأغلال الوقار، وكان الشريف حر الإحساس حر الوجدان حر الشعور، يفصح بالحقيقة ويصارع بما تكظمه الضمائر كيفما أدت إليه الحال، وان أشد ما شنيء به وأخذ عليه ذهابه بنفسه إلى أبعد غايات الترفع والأنفة، وهو الذي جلب عليه ألوان البغضاء والشتان ولقد قضى حياته في حكم آل بويه، وهم فيهم غرور، وفيهم حقد ديلمي، وإن لم يكونوا في أصلهم ديالة، كما يجربنا بذلك الطقطقي. وفيهم خيلاء وزهو، وفيهم حذقة ومداهنة سياسية، وفتحوا أبوابهم على مصاريحها للشعراء والأدباء، واقتضوهم مدائحهم لكي ينسى الناس أصلهم الوضع، وأترعوا لهم الآمال ونفحوهم بالجوائز، وجأهروا بالسوء لمن يتهاون في مدحهم والإطراء عليهم، فلهم بذلك يد على الأدب العربي، فقد صقلوا قرائح الأدباء بأياديهم الغراء ولقد كان الشريف من شاعريته في مشكلة دقيقة المخرج، ويقف بين نفسه الأية المراس التي لا تطاوعه على الملق والتبصيص، وبين أخرى جبارة غاشمة لا تقبل عذرا ولا تخشى في مشيئتها سرا.

مدح المرتضى لأخيه الرضي

للسيد الشريف أبي القاسم المرتضى علم الهدى أعلا الله مقامه مؤلف^(١) جمع فيه المختار من الشعر في الشيب قال في مقدمته: «واعلم أن الإغراق في وصف الشيب والإكثار من معانيه واستيفاء القول فيه لا يكاد يوجد في الشعر القديم وربما ورد فيه الفقرة بعد الفقرة فكانت مما لا نظير له وإنما أطنب في أوصافه واستخراج دفائنه والولوج في شعابه الشعراء المحدثون وللفحلين المبرزين الطائين أبي تمام وأبي عبادة البحتري في هذا المعنى ما يغير من الوجوه سبقا... إلى أن يقول: ووجدت في شعر أخي رضى الله عنه وأرضاه وكرم مثواه في الشيب شيئا كثيرا في غاية الجودة والبراعة ورأيت أيضا بعد ذكر ما للطائين أن أذكره كله لكثرة الإحسان فيه والغوص إلى لطيف المعاني وقد أخرجت من ديوانه مائتين ونيفا وسبعين بيتا من يتأملها وجد الحسن فيها غزيرا والتجويد كثيرا وأنا أضم إلى ذلك وأختمه به ما أخرجه من ديوان شعري.. ثم يقول: ويشهد بتقدم في وصف الشيب أو تأخر ضم قوله إلى نظيره ومعنى إلى عديله واطراح التقليد والعصية وبانضمام ما أخرجته من هذه الدواوين الأربعة يجتمع لك محاسن القول في الشيب والتصرف في فنون أوصافه وضروب معانيه حتى لا يشذ عنها في هذه الباب شيء يعاب به هذا حكم المعاني فأما بلاغة العبارة عنها وجلالها في المعارض الواصلة إلى القلوب بلا حجاب والانتقال في المعنى الواحد من عبارة إلى غيرها مما يزيد عليها براعة وبلاغة أو يساويها أو

(١٠٦)مدح المرتضى لأخيه الرضى

يقاربهما حتى يصير المعنى باختلاف العبارة عنه وتغير الهيئات عليه وان كان واحدا كأنه مختلف في نفسه فهو وقف على هذه الدواوين.. ثم يقول: وان شئت أن تختصر لنفسك وتقتصر على أحد هذه الدواوين استغناء به في هذا المعنى عما سواه ولاحتوائه على ما في غيره فأنت عند سبرك لها وأنسك بكل واحد منها وعلمك بالاشتراك بينها والانفراد والاجتماع والافتراق تعرف على أيها تقتصر وبأيها تستغنى عما سواه)) انتهى.

إن الذي يستثير إعجابي واستغرابي هنا عناية السيد المرتضى بوضع هذا المؤلف ونشاطه وصرف شطر صالح من أوقاته الثمينة في نقد ما جمعه من الشعر في هذا الباب وتحليله واستهداف موضع الفضل بالمقايسة والمقارنة ونبد المرذول المبتذل منه واختيار الأنفس وهو ذلك الرجل الفقيه المتكلم المتبذل والمتبوع الديني ومصدر الفتاوى الفقيه للجماهير في عصره والشيخ المتقدم في السن عند تأليفه فانه نور الله مرقده ولد سنة ٣٥٥هـ وتوفي سنة ٤٣٦هـ ويقول في هذه المقدمة وأخته بما أخرجها من ديوان شعري في هذا المعنى فانه ينيف على (الثلاثمائة) بيت إلى وقتنا هذا وهو ذو الحجة من سنة ٤١٩هـ وربما امتد العمر ووقع نشاط مستقبل لنظم الشعر انتهى.

فيكون في العقد السابع من عمره ونحن نعرف ما يرهق المرجع الديني إذا بلغ تلك المرتبة الدينية وأنيطت به المرجعية ووصل إلى هذا الحد من العمر الذي تعفوا فيه معالم الأدب من نفسه فان له بمقامه القدسي الكريم شغل عن كل شاغل وربما يكون من المفروض عليه في نظر العموم التعالي والتكرم عن مزاوله شيء من ذلك والإسفاف

ترجمة الشرف الرضي.....(١٠٧)

إليه إلا أن الذي يظهر أنه ليس الأمر على هذه الحال في تلك العصور
وان للسيد المرتضى أعلا الله مقامه أدبا جما يتفجر منه لا يصدده عنه
كل من لابسه من شؤون ومقامات ولا يتنافى معه إن لم يكن عنصرا
مهما في تكامل براءته الفقهية.

ويظهر لنا من هذه المقدمة أن السيد المرتضى رحمه الله كان معجبا
بشعر أخيه الرضي حد الإعجاب وكان يعده في الطبقة العالية من
الشعراء ويخرطه في سلك الطائين الشيخ أبي تمام وأبي عبادة وان
ديوان الشريف الرضي كان مجموعا في ذلك الزمان.

قال في الفصل الذي خصصه لشعر الرضي في هذا الكتاب: «وهذا
ما أخرجته لأخي الرضي، رضي الله عنه في الشيب» ثم أورد أبياتا
من قصيدته المستهله بقوله:

دولم الهوى في زمان الشباب وما الحب إلا زمان للتصنهي
ومنها قوله:

مشيب كما استل صدر الحصل لم ير ومن لبثه في القراب
وعلق على هذا البيت بقوله: قوله (لم ير ومن لبثه في القراب)
استعارة مליحة وإنما أشار إلى أن الشيب عجل على سواده في غير حينه
وأبانه لأنه لما شبه طلوع الشيب بسلة السيف أراد أن يبين مع هذا
التشبيه سرعة وفوده في غير وقته فقال: «(لم ير ومن لبثه في القراب)
تحقيقاً للمعنى الذي ذكرنا». وأورد أبياتا من قصيدته:

تنفص في رأسي بياض كقنه صقال ترامي في النصول النوالق
وما جزعي إن حل لون وبعثا أرى الشيب عضبا قطعاً حبل عقى

(١٠٨) مدح المرتضى لأخيه الرضى

ومعنى قوله: (وما جزعي إن حال لون)، أي ليس في التغيير ما أجزع له لكنني أرى الشيب كالسيف الذي يقطع جبل عاتقي وهذا مع أنه تشبيه للون الشيب بلون السيف يفيد أن حلول الشيب به في قطع أماله وحسم لذاته وتغيير أحواله يجري مجرى قطع السيف لجبل عاتقه وقد أحسن كل الإحسان في هذه الأبيات فما أجود سبكها وأسلم لفظها وأصح معانيها واورد له قوله في جملة أبيات:

وما شبت من طول الصنين وإنما غبار حروب الدهر غطى سوادها
ثم قال ويشبه تشبيه الشيب وإضافته ذلك إلى حروب الدهر قول
ابن المعتز:

قللت كبرت وثبتت قلت لها هذا غبار وقطع الدهر
وقول ابن الرومي:

أطرق غبار للشيب فوق مفارقي تلوى منى الراكضات لأمليها
وقول المرتضى نفسه بعض الشبه:

ويهزذن من داعي المزاح مفارقا بلا شمط إلا بياض غبار
قال وهذا البيت تضمن تشبيه بياض الغبار بالشمط ولهذا حسن استثنائه من الشمط من حيث أشبه وإن لم يكن من جنسه. وما تقدم لأخي رضى الله عنه ولا بن المعتز فيه تشبيه الشيب وبياضه بالغبار والمعنى يتقارب لأن الشيء إذا أشبه غيره فذلك الغير مشبه له. وأقسم قسما بره أنني لما نظمت هذا البيت في وصف الإبل ما كنت سمعت قبله من أحد في نظم ولا نشر تشبيه الشيب بالغبار وإنما اتفق على سبيل التوارد لأن تشبيه هذا بذاك أمر مشاهد يجوز أن يقع لمن فكر من غير

ترجمة الشرف الرضي.....(١٠٩)

اتباع منه لغيره ولهذا أنكر على من تقدم من العلماء، إذا قالوا أخذ فلان من فلان إذا وقفوا على متشابه من معانيه.

وأورد له قوله وهو آخر ما أورد له:

ولقد أكون من لغواتي مرة بأعز منزلة للحبيب الأقرب

إلى قوله:

فلقد فجعت بكل فرع بإذخ من عيص مدركه الأعز الأطيب

ثم علق عليه بقوله: «ولهذه الأبيات ما شئت من معنى ولفظ»،

وقال: «وكنا ذكرنا في صدر الكتاب إنا أخرجنا من ديوان أخي رحمة

الله مبلغا عيناه ووقع إلينا بعد ذلك من شعره ما زاد على ما ذكرناه من

العدد والمخرج كله يزيد على الثلاثمائة بيت»، انتهى.

ولولا خوف الإطالة وتحاشي الخروج عن الموضوع لأوردت هذا

الفصل بطوله وشفعته بما ذكره الدكتور زكي مبارك في الفصل (بكاء

الشباب) من كتاب "عبقرية الشريف"، وقارنت بين النظرتين نظرة

الشريف ونظرة الدكتور فيما عرضنا له من شعر الشريف الرضي في

الشيب وانك لتجد من عظيم الصنعة في مهارة المرتضى وبراعته في نقد

الشعر وتحليله وغرابة معانيه ونفاذ قريحته في التعمق في دقيق معارضه

في هذا الكتاب ما لا يحسنه إلا المهرة في فنون الأدب وصياغة الكلام

وما يستقيم دروسا نافعة لمن يعتمد التفوق في هذه الصناعة وقد اقتصرنا

من ذلك على إيراد ما يزيدنا معرفة وبصيرة بأدب الشريف الرضي

لا غير.

الافتخار بالنسب

وإذا لاحظنا ما للأنساب من الاعتبارات عند العرب عامة وعند الهاشميين على الأخص وما لها من كرامة وقوانين عرفية وضعية تعرف السبب الباعث للشريف الرضي، فيما أكثر فيه من الافتخار بنسبه وما يتصل بذلك من الأيفاء بكل ما يتوصل به لتولي النقابة فيها. إن للأنساب شأنًا مهما عند الأمة العربية قبل الإسلام وبعده ولعلمائها كرامة وقولهم فصل ينفث به حد الشدائد وتحمل فيه عقد المكاراة في حياتها العائلية والاجتماعية وقولهم مقطع الأمر ومرجعه، به تشد وشائج الأرحام فينطفئ بها لبيب الأضغان ويقولهم نختار كرائم الأزواج لطهارة الأنساب. والنسب بعد ذلك من الدعائم التي تركز عليه مقدراتهم الاجتماعية وتتصل به اتصالاً وثيقاً لقد كان الحكم في الأمة العربية طائفيًا قبل الإسلام وبعده ولحد الآن لم يستأصل ذلك النوع من الحكم من مجموعها الاجتماعي في كثير من أقطارها التي تقطنها مهما كان نفوذ الدولة التي تنضوي تحت سيادتها فان زعيم العشيرة وسريها هو صاحب السلطنة المطلقة في أفرادها والملك غير المتوج ولكل عشيرة قوانين عرفية تقليدية تتواضع عليها وتتحد بها صلاتها مع غيرها من الطوائف الأخرى وتمسك بها إلى حد الغلو وتتكون لها بها شخصية اجتماعية ممتازة ولا يتنافى ذلك مع سيادة الدولة التي يشملها سلطانها. وأن لطوائف الأمة العربية درجات في الكرامة الاجتماعية محترمة تتناسب عليها في المناسبات التي تقع بينها فكان حتماً في هذا الوضع الاجتماعي أن يحتفظ بالأنساب ويكون

لعلمائها شأن يذكر في كثير من مقدراتها الحيوية. ثم في تعاقب الحكم الأموي والعباسي تضاعفت الحاجة إلى معرفة الأنساب ودونت لها المؤلفات والكتب وأدخلت في قائمة العلوم التي تدرس وتتفاضل بها العلماء ووضعت لها الكلمات الاصطلاحية والرموز الفنية ولكن الحاجة إليها في الدور الأموي لا تشبهها في الدور العباسي.

حرص الأمويون على احتكار السيادة الإسلامية للعرب دون غيرهم من الشعوب الإسلامية وشدوا العزيمة على صيانة الحكم العربي من الدخلاء والموالي وقاوموا العقيدة الشعبية بكل ما لهم من طاقة ومنه فكانت للأنساب العربية ولمن يحمل شهادة عالية بها قيمة مرعية في اندماج حاملها في عناصر الحكم وكان من المحتم الشطب على الدخيل والمولى من ملاك الوظائف ولما أعقبه الدور العباسي تطلعت رؤس الموالى وقبضوا على أزمة الحكم وانكمش أشراف العرب يتناولون بالعظام ويتفاخرون بما كانت وضعفت قيمة النسب العربي بصورة عامة وبضعفها قلت الحاجة إلى النسابين إلا أنه من بين ذلك كان لأنساب الهاشميين بصورة خاصة شأن عال في مقدرات الدولة نظير ما كان للعربي القح في دور الأموي أو أعظم باعتبار أنهم الأسرة المالكة ووراث العرش الشرعيون وكانت لهم حقوق استثنائية يتمتعون بها لا بد من رعايتها وللشيعة من ناحية أخرى دينية محضة اهتمام آخر بأنساب الهاشميين لاعتقادها أن لهم حقا شرعيا ماليا في بيت المال الإسلامي وهو الذي يسميه فقهاؤها بالخمس الهاشمي وان لهم حقوقا ووجائب دينية غير ذلك هي من جملة أحكام الفقه الديني.

عمره ووفاته ومدفنه

عن الخطيب أنه توفي في بكرة يوم الأحد ٦ محرم سنة ٤٠٦هـ وولد سنة ٣٥٩هـ ببغداد من دون خلاف وذكر جماعة أنه توفي سنة ٤٠٤هـ وأورد صاحب "روضات الجنات" حديثاً عن ابن أحمد العكبري قال سمعت المرتضى يقول ولدت سنة ٣٥٥هـ وولد أخي الرضي سنة ٣٥٩هـ وتوفي الرضي سنة ٤٠٥هـ، ولما توفي الشريف الرضي أدهش المصاب أخاه المرتضى وأوجع قلبه، فلم يتمكن من مشاهدة الكارثة، فذهب ماشياً إلى تربة الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) وجاء فخر الملك الوزير أبو غالب وولده الأعز والأشرف، حفاة مشاة، فصلوا عليه في داره ودفنوه فيها. وراثه سليمان بن فهد بقوله:

عذيري من حلت قد طرق أمات الهدو واحيي القلب

ولا يزال في نفسي شيء من عدم حضور المرتضى موت أخيه وعدم الصلاة عليه ودفنه الذي اتفق عليه المؤرخون. وكيف يمكن أن تحصل لنا قناعة بأن المرتضى، ذلك المتقي المحتسب العارف الرباني، يستخفه الجزع في لقضاء الله وقدره فيهرب من حضور هذا المشهد، وهو مع ذلك سري الأسرة وكبيرها والتوفي مثل شقيقه وهو الرضي. فلا بد أن يكون هنالك سر لم نطلع عليه.

وقد دفن في داره الكائنة في محلة الكرخ بخط مسجد الانباريين. وذكر كثيرون أنه نقل بعد ذلك إلى كربلاء فدفن عند قبر أبيه. وذكر العلامة الطباطبائي أن موضع قبر الشريف عند قبر إبراهيم المجاب جد الشريف ابن الإمام موسى بن جعفر في الحائر الحسيني، وهو في أواخر الرواق فوق الرأس المقدس من الحرم المطهر. قال

في "روضات الجنات": «وقيل أنه الآن في المسجد المتصل بالحائر في الجهة الواقعة خلف الضريح المقدس». ولصاحب "روضات الجنات" هنا تحقيق غريب في التوفيق بين ما اشتهر بين المؤرخين من نقله إلى كربلاء، وبين ما هو المعروف بين الناس في زماننا هذا، من أن قبره في الكاظمية. وإني لأسف جد الأسف أن ينتشر هذا الكتاب في الآفاق من دون أن ينزه أو يهذب ولكنه في المقام قد أحسن فيما أورده من الاختلاف في موضع القبر، ويتلخص ذلك في أنه قبل النقل إلى كربلاء أودع الجثمان في الكاظمية، فشاعت التسمية لهذا المحل (بقبر الرضي) ثم نقل الجثمان إلى كربلاء وبقيت العمارة المشيدة عليه تعرف (بقبر الرضي). قال: «وصحت التسمية بملاحظة ما كان أو لتخلف بعض أجزاء الجثمان عند النقل، وإنها لم تسو وبقيت مشيدة لأنه دفن في جوار قبره بعض الأكابر الصالحين الذين تعظم قبورهم» انتهى.

ففي كلامه هذا بيان لوجه التسمية، وسبب بقاء العمارة مشيدة لكن هذا القبر المعروف واقع بالقرب من مقابر قریش، وأين هو من محلة الكرخ ولعل النقل تكرر، ولعل القبر لواحد من عقبه القريب، وقد شاع باسمه.

وقد رثاه أخوه المرتضى بأبيات منها:

فلدمع غير مساعد ومواسي

لا تتكروا من فيض نمعي عبرة

ولرب عمر طال بالأرجاس

وأها لعرك من قصير طاهر

ورثاه مهيار بمستهله بقوله:

فتواكلي غاض الندى وخلا الندى

أقریش لا لغم أراك ولا يد

وأخرى مطلعها:

ولوى لویا فاستزل مقامها

من جب غارب هاشم وسنامها

عقب الشريف

أعقب الشريف ولدا واحدا، هو أبو عدنان الملقب بالطاهر ذي المناقب لقب جده أبي أحمد. وقد تولى نقابة الطالبين ببغداد على قاعدة جده وأبيه وعمه، وانقرض عقب الرضي بانقراضه. وذكر أنه كان عظيم الشأن معظما عند ملوك آل بويه، وقد مدحه شعراء عصره كأبن الحجاج ومهيار وغيرهما، ونقل في عمدة الطالب عن أبي الحسن العمري الشريف علي بن محمد العلوي النسابة، المعروف بابن الصوفي أنه كان عفيفا متميزا بصلاحه وصواب رأيه.

الى هنا جفُ قلمه الشريف (تَكْتَل)، والحمد لله أولاً وآخراً.



الفهرسة

الموضوع	الصفحة
ترجمة المؤلف	١
نسبه وولادته	١
أساتذته	١
مجلس درسه وتلامذته	٢
آثاره العلمية	٣
وفاته	٤
عقبه	٤
مصادر ترجمته	٥
للشريف الرضي	١١
ولادته ونشأته ودراسه	١١
صفاته وأخلاقه	١٢
آثاره العلمية والأدبية	١٢
شعره	١٣
مفرسه	١٣
رهبته وأشياخه	١٥
وظائفه في الدولة وألقابه	٢٧
وظائفه	٢٧
النقابة	٢٧
إمارة الحج	٣٤
رد المظالم	٤٦
نيابة الخلافة بمدينة السلام	٤٧
ألقابه	٤٧
عقيدته من شعره	٤٩
مزاياه وغرائزه	٥٤
علمه وأدبه وشعره	٥٧
العلم في القرون الإسلامية الأولى	٦١
الفقه الإسلامي	٦٢
مولفات الشريف	٦٤

الفهرسة.....	(١١٦)
٧١.....	أساتذته واستاذيته
٧٥.....	صيلاته بالأبناء
٧٦.....	شعوره في شعره
٧٨.....	صلاته بالخلفاء والملوك والوزراء
٨١.....	دور والده الشريف
١٠٥.....	مدح المرتضى لأخيه الرضي
١١٠.....	الاختصار بالنسب
١١٢.....	عمره ووفاته ومدفنه
١١٤.....	عقب الشريف

